



جِوَالْهُرْبَرْجِيَّةِ

بِلْيُونِ مَصْرُوْلِيَّةِ

مَدْعَوْتَهِ

جولة في ربع أوروبا

بين مصر وأيسلندا

تأليف
محمد ثابت



جولة في ربوع أوروبا

محمد ثابت

رقم إيداع ١١٢٠٤ / ٢٠١٤
تدمك: ٩١٠٠ ٧١٩ ٩٧٧ ٩٧٨

مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة

جميع الحقوق محفوظة للناشر مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة
المشهرة برقم ٨٨٦٢ بتاريخ ٢٠١٢/٨/٢٦

إن مؤسسة هنداوي للتعليم والثقافة غير مسؤولة عن آراء المؤلف وأفكاره
وإنما يعبر الكتاب عن آراء مؤلفه

٥٤ عمارات الفتح، حي السفارات، مدينة نصر ١١٤٧١، القاهرة
جمهورية مصر العربية

تلفيفون: +٢٠٢ ٢٢٧٠٦٣٥٢ فاكس: +٢٠٢ ٣٥٣٦٥٨٥٣

البريد الإلكتروني: hindawi@hindawi.org

الموقع الإلكتروني: <http://www.hindawi.org>

تصميم الغلاف: إسلام الشيمي.

جميع الحقوق الخاصة بصورة وتصميم الغلاف محفوظة لمؤسسة هنداوي
للتعليم والثقافة. جميع الحقوق الأخرى ذات الصلة بهذا العمل خاضعة للملكية
العامة.

Cover Artwork and Design Copyright © 2014 Hindawi

Foundation for Education and Culture.

All other rights related to this work are in the public domain.

المحتويات

٩

مُقدمة

١٣

الرحلة الأولى يونيه ١٩٢٦

٧١

الرحلة الثانية يونيه ١٩٣٠



رحلة سنة ١٩٢٦ عن طريق إيطاليا. رحلة سنة ١٩٣٠ عن طريق البحر الأسود.

مُقدمة

لعل أشهى ما تتوق إليه نفسي، وأتمّ ما يطمئنُ له جناني جولاتُ أقوم بها في مختلف البلاد، لا فرق عندي بين سهل وحَرْنَ، وبَدْوٍ وحضرٍ، أجوس خلالها مُنْقَبًا في غير ملل، رغم أنني أركب في سبيل ذلك الصعب وأحمل الألم، وكأنني أستشعر بهذا اللذة الكاملة التي لا أبتعي عنها عوضاً، والحق أن في الرحلات – التي أغرمت بها منذ الصبا – لَخِيرٌ مجدٌ لنشاط الجسم، ومضاء العزم، إلى حفز في الهمم، وتقويم في الخلق، واعتماد على النفس.

وها أنا أقص فيما يلي نبذة رحلتين جُبِتْ فيما كثيراً من أرجاء أوروبا، قمت بأولاهما في صيف سنة ١٩٢٦ برفقة زميلين فاضلين؛ هما: الأستاذ علي الأهوناني، والأستاذ عبد الرحمن السيد، وقد حلنا بلاداً عدة من إيطاليا وفرنسا وسويسرا وإنجلترا؛ وفي رحلتي الثانية في صيف سنة ١٩٣٠ لم أوفق إلى زميل؛ فاعترضت القيام بها وحيداً، وكانت فيها أمضى عزماً مُذْ قطعتُ ما يناظر سبعة عشر ألف كيلومتر بين بر وبحر، وحللت أربع عشرة دولة، وكأنني رأيت في عزلتي مشجعاً لي على توخي الاقتصاد والجرأة.

كنت إذا حللت بلداً أودعت حقائيقي مكتب الأمانات وخرجت أختلف إلى الفنادق حتى أهتدى إلى ما يروقني في غير توريط ولا إعنات، ثم ألجأ إلى دار كتب أتصفح ما بها من صورات «كرتات» عن المدينة، وأناقش صاحب المكتبة فيها جميعاً كي أتفهمها، ثم أبتاع منها ما أستملحه، وأستزيد بخريطة يدوية للمدينة أتصفحها بإمعان بعد أن أُعِينَ موضع المكتبة والنزل منها. وكنت على خططها أسير دون أن ألجأ إلى بوليس أو دليل. ولقد كان في ذلك عون لي على تفقد أحياط المدينة في أيام قليلة.

وقد كنت طوال جولاتي أحاول درس البلد التي حلت بها من الوجهة الجغرافية والاجتماعية ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، وكانت مصر العزيزة ماثلة أمامي دائمًا أحدّث القوم عنها، وأشيد بذكرها في جميع البلدان، وما كان أشدّ ألمي عندما كان القوم يذكرون عن مصر في سياق حديثهم معى معلومات مشوهة نحن براء منها؛ ذلك لأن الدعاية لمصر في تلك الأثناء مهمّلة، اللهم إلا فيما يذيعه ذوو الأغراض السيئة مما يحط من قدرنا، ويصورنا في صورة الهمج الرعاع، بينما تجدتهم يذيعون في دعايتهم لبلادهم من المحسنات ما هو مبالغ فيه إلى حد لا يطابق الواقع مطلقاً، وما كنت أفتّر لحظة عن دفع تلك المفتريات عنا، وإنّ اقناعهم بأنّ مصر تفوق كثيراً من بلدان أوروبا حضارة ونظمًا، وإن فاتني أن أزود نفسي بمجموعة من الصور المصرية المشرفة أمثل تلك التي تراها تُعرض في جميع مكتباتهم، وبها أفخر مبانيهم، وأجمل أحيايّهم وحدائّهم، وأجلّ آثارهم ومشاهدّهم.

حقاً ليس فيما تعرضه المكتبات المصرية عنا ما يشرف؛ إذ لا تجد صورة لمنظر طبيعي أو أثر تالد، أو مكان طريف إلا ويُشوّه جماله أحد الباعة المتجلّين، أو الشاذين، أو أبناء السبيل، أو المشعوذين في ثياب بالية وشكلٍ مُزءِّر. وفي استطاعة هوا التصوير الشمسي ورجال الفن في مصر – ولا أغفّهم من اللوم – أن يقصدوا إلى إعفاء صورهم مما يحط من قدر مصر كما يفعل زملاؤهم في البلاد الأوروبيّة.

وكم كنت أحاول أن أتعثر على صور بعض الأحياء القدرة والبيئات الفقيرة – وهي كثيرة حتى في أكبر عواصمهم، وبخاصة في دول شرق أوروبا – لكن بغير طائل! وقد حاولت مراراً أن أصوّر بنفسي بعض أحيايّهم القدرة، فكان يمنعني المارة من ذلك، ويُظهرون لي استياءهم الشديد. أذكر من ذلك حادثتين كدت أفقد فيها آلة التصوير وأأساق إلى البوليس؛ إحداهما: في سوق السمك في برجن، من أعمال النرويج، وهو من أقدر أحياء المدينة، والأخرى: في أحد الأزقة المختنقة التي يقطنها فقراء ستكمبل.

وكم كان إعجابي شديداً بسيدة أيسلندية جمعني وإياها مجلس، فكانت تحاول تصوير أيسلنده وكأنها جنة الخلد! ولم تقنع بالقول، بل كانت تتطلع بمالها ووقتها، وترافقني إلى الأماكن القاسية مخافة أن آخذ عن بلادها الفقيرة فكرة سيئة. وكنت لألاحظ أنها تحاول إبعادي عن الأماكن القدرة، وكانت ترجوني أن أكتب عن بلادها ما رأفي عندي لمصر جزاء ما أُسْدِتْ إلىَّ من خدمات. وقد وصلني منها خطاب تنتظر أن أوافيها بما نشرته عن أيسلنده في مجلاتنا ومصوراتنا.

وعجيب جدًا أن ينكر إخواني المصريون هناك شخصياتهم، ويخفوا جنسيتهم، فهم يشتركون في الحديث وكأنهم من بلد غير مصر! وقد ضمتني مجالس كثيرة ببعضهم، فكانوا يرجونني ألا أعلن أننا مصريون لأن في ذلك وصمة ومعرة، مع أنني أعدها خير دعاية لمصر. ومن أجر بالدعائية الحسنة من طبقة المتعلمين!

أذكر حديثًا جرى بيتي وبين بعض النرويجيين المثقفين في أزوٰء، أبدى الرجل في نهايته شدة دهشته من أن في مصر متعلمين أمثالى، وصارحنى بأنه ما كان يعرف إلا أن مصر بلد همجي. وأآخر في جوبرج، من أعمال السويد، بعد أن حدثه طويلاً عن مصر ومفاخرها، سأله قائلًا: «أحَقَّاً أن في مصر كثيراً من التماسيح، وأنكم تأكلون لحمها وببيضها؟»

وثم حادثة ثالثة في ستكمالم جرت لي مع ربة النزل الذي حللت؛ إذ فاجأتني يوماً وهي باسمة أن ها هو شيء عن مصر يروقك بالطبع، ويفئنس من وحشتك هنا، وما كان أشد اندهاشي عندما رأيتها تقدم لي جريدة سويدية تنشر صورة لنظر صحراوي به بعض الإبل وحداتها القدرون، وإلى جانبه منظر لامرأتين في أردية الغجر الرثة، إحداهما تضرب على الدف، والأخرى ترقص، ومنظر ثالث لصلٍّ ريفية بجانب بعض العشش القدرة، ومن حولها صبية عراة، وبها بايس ومشعوذ في أسمال مهللة؛ أحدهما: واقف، والآخر ساجد، وقد كتب تحت الجميع «شيء من مصر»، وثم حادثة رابعة في أيسلندا، عندما كنت أحدث بعض رفقاء الأيسلنديين في رحلتي إلى «جلفس وبركان هكلا». وأنذر شيئاً عن مصر أنه فاجأني أحدهم بقوله: أنا لا أزال أحفظ كلمة مصرية، قلت له: وما هي؟ فقال بعد تلعم: «بقيشيش».

وفي الحق أن للقوم العذر أن جهلو كل شيء عن مصر وتطورها؛ لأننا أهملنا الدعاية من جميع نواحيها من ناحية التصوير، وناحية الكتابة، وناحية الكلام، وجانب كبير لا شك واقع على سفارتنا في الخارج؛ فأنت كلما دخلت سفارة أجنبية زُوِّدوك بالمطبوعات المصورة عن بلادهم في ورق صقيل، ولغات متعددة، يقدم كل ذلك بسخاء وبدون مقابل. أما في سفارتنا فلا تجد شيئاً من ذلك رغم أننا نفاخر بالكرم المصري.

وفي اعتقادى، أن كثيراً من أمهات المدن في مصر، وبخاصة القاهرة والإسكندرية، لا يعززها إلا القليل كي تشابه أكبر العواصم الأوروبية، ولعل أكبر نقش عندهنا يعزى إلى أجناد البوليس وتهاونهم؛ فأنت ترى رجال البوليس في العواصم الأوروبية الكبرى يُنتقون من بين الضباط المثقفين، ويؤجرون مرتبات تسمى بنفوسهم، و يجعلهم مثال الاحترام،

ويغلب أن يتكلم الواحد منهم لغة أجنبية أو لغتين، وهو في موقفه على رءوس الطرق يمثل عظمة بلاده، ويسير حركة المرور، ويهدى كل من لجأ إليه في غير امتعاض أو ملل، وقد يعاونه في مهمته بوليس آخر يتجلو على مقربة منه، ويصلح ما قد يقع فيه المارة من أخطاء.

حدث مرة أني لم أهتد إلى مكان بعض الأندية الرياضية في استكمال، فلجلأت إلى البوليس، ولما لم يعرف العنوان الذي أردته أخرج من جيبيه دليلاً، وصادف أن لم يكن هذا النادي قد أدرج به، فلم يتركتني، بل تناهى عن موقفه لزميله وقادني إلى حانوت به «تليفون»، وبحث لي عن رقم «تليفون» النادي ومخاطبه وأصلاح منه العنوان، ثم أرشدني إليه وعاد مكانه، وهو طوال تلك المدة باشُّ الوجه، باسم التغر.

وحدث مرة أخرى أني سألت البوليس في لندن عن مكان، فوصفه لي، لكنني أخطأت السير وانحدرت جهة اليسار بدل اليمين، فلم أشعر إلا ورجل البوليس من ورائي ينادياني — أن قد أخطأك السير يا سيدي فخذ طريقك من هنا — بعد أن أوقف حركة المرور، وانطلق يudo ورائي، فأين هذا من بوليسينا وقد سأله مرة عن شارع في حي الحلمية هو واقف أمامه، فأضلني بإرشاده الخاطئ، ولما هداني بعض المارة رجعت أعاتبه فقال: «عملك إيه؟» بعد أن عبس في وجهي، ولم يقبل على قولي؟!

فماذا علينا لو وسّعنا نطاق مدرسة «الكونستبلات» وخرّجنا فيها الكثير من أبنائنا المهذبين الذين بدأت طلائعهم تبشر بالنجاح، وإن أنس لا أنس تهاون بوليسينا في معاقبة من يلقي بالقمامات وفضلات البيوت إلى جانب الطرق، حتى في بعض الأحياء الكبيرة في كومات منفردة، فأين هذا من بلاد ألمانيا، وفيها إذا نزع الرجل غلاف قطعة حلوى ليأكلها طواه في جيبيه حتى يمر على سلة المهملات؟ أليس في فرض غرامات بسيطة خير مانع لهذا العبث؟

حدث أن دخلت في مناقشة عن مصر مع سيدة مجرية تقطن القاهرة قابلتها على الباخرة في عودتنا، وكانت أدفع مفترياتها، وألزمهما الحاجة في كثير من الأمور، غير أني شعرت بضعف حجتي لـما أن تعرضت لموضوع قذارة الطرق وإلقاء القمامات بها، وانتشار أبناء السبيل في شكل تعافه الأعين، ولا أدرى هل النقص في هذا راجع إلى نقص في القانون، أو تهاون من البوليس؟ فما أحوجنا إلى تعيين بوليس لمراقبة الآداب والنظافة العامة. ذلك بعض ما عنَّ لي أصدر به كلمتي على أصيبي به نفعاً لمصر التي أرجو لها من الصميم فهو حوضاً، ولأبنائها العاملين البررة هناء وخيراً.

الرحلة الأولى يونيو ١٩٢٦

إيطاليا - فرنسا - سويسرا - إنجلترا

ما وافت الساعة الثالثة من مساء الجمعة حتى نفخت الباحرة «إيطاليا» في الصور إذاناً بالسفر، وسرعان ما رأيناها تنحى عن الشاطئ في هدوء، وتشق ماء التغر في خيلاء، حتى إذا ما برح حواجز الأمواج جدت في المسير وهي تمخر في عباب اليم، وقد خلفت في مؤخرها ذيلاً من الماء الأبيض يمتد إلى أفق السماء تخلله نهرًا من اللبن يعلوه الزبد وسط زرقة البحر الصافية، وكأنه نهر المجرة قد اخترط له طريقاً في كبد السماء، وما لبثت الإسكندرية على عظمتها تنضمر أمامنا وتتضاءل حتى إذا ما كانت الرابعة مساء تلاشت عن الأنظار واحتبت تحت الأفق.

عند ذلك تجلت أمامنا عظمة الرحمن - عز وجل - خالق هذا البحر اللانهائي؛ إذ كانا ننظر ذات اليمين وذات الشمال فيرتد البصر خاسئاً لا يرى سوى مسطح من الماء الأزرق قد جعدت أديمه الموجات، وأطبقت عليه قبة السماء في زرقة شاحبة.

وفي ظهر اليوم التالي، بدت كنديا «كريت» في سلسلة من الجبال الشاحبة وكأنها قد أوفدت إلينا سريًا من الطير الأبيض يحمل إلينا تحياتها، وظللت ترفرف من خلفنا مودعة زهاء ثلاثة ساعات، حتى إذا ما أعيادها الجهد آبَت إلى وطنها ونحن نرمي بها بنظرات ملؤها الرحمة على ما احتملت في سبيلنا من عناء.

وفي أصيل اليوم التالي، تجلت على بُعد أرض كلابريا - أقصى ولايات إيطاليا في الجنوب الغربي - بدت حائطاً صخرياً شاهقاً يمتد إلى أفق السماء، وكان كلما قاربناه يسُرُّ عن ربِّي وتلال في سلاسل ومدرجات إلى الجنوب تشق جوانبها وديانٌ غيض ماؤها،



عبر البحر الأبيض في طريقنا إلى إيطاليا.

وتحضن في حجورها قرى تطل على البحر في انحدار، وتحف بها الخضراء النضرة، وأشجار الزيتون، وظهر مخروط بركان «أتنا» إلى يسارنا يقذف من جوفه بدخان كالسحاب. وقد رست الباخرة على كاتانيا — وأنا عائد لمصر — ست ساعات كاملات، استطعت خلالها أن أجوب المدينة في عربة، فبدت قدرة متربة بها كثير من مصانع الكبريت الذي يستمد من أتنا، ولقد اعتليناه فيما منفراً رهيباً يظل المدينة بأخرته المصعدة أبداً. وقد ظلت الباخرة طوال تلك المدة تحمل وسقها من الفاكهة، خصوصاً الكمثرى، كما فعلت ذلك من قبل في نابلي.

وما كاد الليل يرخي سدوله حتى اجتنبت أنظارنا كثرة الثريات والأنوار ذات اليمين وذات الشمال، وكانت تتلألأً وهي منتشرة في مدرجات تفصلها نجاد مظلمة وكأنها البلور قد نثر متقطعاً، وأبدع ما تجلى ذلك عندما ضمنا بوغاز مسيينا بين جنبيه، فكانت مدينة ريجيو وقرية سان جوفاني تتألق سني إلى اليمين، ومدينة مسيينا إلى اليسار.

ومن أعجب ما استرعى أنظارنا سمك الدلفين الذي أخذ يعترض السفينة في مقدمها، ويسابقها نحو نصف ساعة وهو ينفر في الماء غاضبًا، ويثبت بعنف نحو الباخرة كأنه يريد الوقوف في سبيلها حتى لا تزعجه في موطنها، وهو لم يجاوز بعد المترین والنصف طولًا، وكان كل طريقنا في البوغاز وما يتبعه شماليًا في جو غائم ما عهدناه من قبل، وقد أمطرتنا السماء رذاذًا، وأندرت بالوايل، وحجبت عنا ضوء القمر، وبصيص النجوم حتى أمسينا بعد مغادرة البوغاز ونحن في ظلام دامس وليل بهيم.

صفت الريح الشمالية بشيء من العنف، وزاد بردها، فأخذ الركبان ينسلون فرادى إلى مخادعهم حتى أقفر ظهر الباخرة من الناس، عدا نفر قليل كانا من بينهم، وألينا على نفوسنا ألا نأوي إلى مضاجعنا حتى نمتع النظر بجمال بركان ستربيلي — زينة البحر التيراني. مكتنا نرقبه على مضض حتى انتصف الليل حين استبان على بُعد، وفي غير وضوح، على عكس ما عهد القوم من قبل.

ولبثنا نتطلع إليه دون أن نظرف من توهجه بطائل حتى خلناه خامد الأنفاس، وما كاد اليأس يتسرب إلى نفوسنا حتى لفظ على غرة حممًا متأجة كأنها أوار الجحيم علت فوق كأسه، ثم تدفقت وهي تموح في هدوء إلى جانب المخروط الأمين، وكانت كلما هوت أضحت حمراء قاتمة اللون، ثم انتهت أمرها إلى الظلمة والخmod.

قمنا في الغد مبكرين، وكان الجو هادئًا، ونسيم الصباح عليلاً، ومنظر جبال إيطاليا عن يميننا، وصخرة كابري الشاهقة عن يسارنا، وأطل علينا فيزوف من الشمال في عدة مخاريط متجانبة غير متميزة أظهرها اثنان، تعلو أكبراهما كومات من بخار أبيض يتصاعد الهوينا من قمتها، وتدفع به الريح إلى سحب السماء، فيمتزج بها ويبلغ عنان الجو. وقد انتشر المخروط من أسفله بالقرى ذات الأبنية الحجرية البيضاء تتخللها منابت الأشجار.

ولما أن وضح جانبه الشمالي تجلى خليج نابولي في قوس تزيينه ميناوه ذات الأرصفة المنسقة، والأبنية الفخمة التي تبدو في مدرجات يعلو بعضها بعضاً، وقد أشرف فيزوف عليهما من الجنوب كالحارس الأمين، وأظلها بدخانه، فكان هذا المنظر ساحرًا فدًا حق في نظرنا المثل الإنجليزي See Naples and die



بعض المتسولين القدرين في أحياط نابولي القديمة.

هبطنا المدينة فاسترعى أنظارنا بها علو مبانيها وتشابهها، فهي تكاد تتآلف في مجموعها من ستة طوابق، غير أنك قلما تجدتها في علو واحد لاختلاف ارتفاع أراضيها الصخرية؛ لذلك كان غالب الطرقات عظيمة المنحدر، كثيرة الليات، وقد رصفت بمربعتين من حجر البازلت الأسود قدّ من صخور فيزوف، وكثيراً ما يصل الأزقة بعضها ببعض درجات من الصخر بين العشر والخمسين عدّاً. وما أدهشنا سير الترام فوق تلك المنحدرات بمهارة عجيبة، وقد زود بفرامل تستوقفه على الفور. أما أهل المدينة فلا يكاد يفرق المرء بينهم وبين المصريين والشريين في السحن والعادات، ولو لا أزياؤهم ولهجتهم الغربية ما شعرنا بأننا غرباء بينهم، ينادي باعthem في الطرقات، ويحاولون تحسين سلعهم على الطريقة المألوفة في مصر، ومن بينهم يائدو الكوارع يحملونها على لوحات خشبية لا فرق بينهم وبين بائعي «لحם الرأس»

عندنا، وعلى رعوس الطرق ترى محال شراب الليمون والبرتقال يعصرونه لك على الفور.

ويظهر أن السكر عزيز لديهم؛ لأنك لا تقاد تحس وجوده في شرابهم. وبالمدينة عدد كبير من المقاهي، وغالب ما يقدم بها الخمور، وبخاصة النبيذ والجعة، على أن بها قهوة منفردة المذاق، وشائياً ليس فيه من طعم الشاي ولا رائحته شيء. والقوم مدمنون على تناول النبيذ بكثرة عجيبة. أدهشني مرة أن رأيت أحد فقراء نابولي يفترش الأرض أمام بابه في بعض الأزقة الفدراة، وقد أمسك في يده بإماء به سائل أحمر أخذ بيبل منه قطع الخبر ويملئها بشهية، وكانت أحواله عسلاً، ولشد ما كانت دهشتي لما علمت أنه نبيذ، والنبيذ يصنع في كل مكان، وغالب الأهلين يعصرونه في منازلهم لكترة زراعة الكروم والفاكهه عندهم.

ويضيق السائح هناك تراب فيزوف تثيره الرياح في كل مكان، فتجعل الطرق قذرة منفرة، وبخاصة في الأحياء الفقيرة التي تحكي أزقة بولاق والحسينية عندنا إن لم تفهوما في كثرة أوضارها. وترى في غالب أركان الأزقة تماثيل للمسيح أو العذراء تعلق عليها المشاعل، وتقدم لها القرابين تبرّغاً، ويركع أمامها المارة على نحو ما يفعل عامة المصريين أمام بعض الأضرحة، وينغص على السائح كثرة الباعة المتجولين وجماهير المتسولين والكتاسين الذين يجمعون أعقاب السجاير ويعرضونها للبيع.

والإيطالي نشيط، مجد، رقيق الحاشية، كريم، فلا تقاد ترى مشروعًا يتطلب الجهد الكبير إلا ويكون له يد فيه، والبلاد اليوم نашطة في إقامة المنشآت الإصلاحية، وإن أعوزها المال على أثر تدهور سعر الليرة الإيطالية بعد الحرب، وأخّرها كثيراً انتشار الأمية بنسبة كبيرة؛ فغالب المزارعين — وهم نصف السكان — أميون، ويفلغ أن يشتراك الملاك مع المستأجرين مناصفة في الإنتاج، وتلك الطريقة تحسن إنتاجهم كثيراً مع عدم إجهاد الأرضي.

وقد الجائم العوز المالي إلى فرض ضرائب متعددة على الأهلين والزائرين. هذا ومن أعجبها ضريبة dazio على كل ما يدخل القرى والمدن أو يخرج منها، فهي تشبه «الدخولية» التي كانت تجبي في مصر قديماً، إلى ذلك ضريبة «البولو» التي كنا ندفعها في الأنزال والملاعب والمقاهي وما إليها.

وال القوم غالون في وطنيتهم يشيدون بذكر إيطاليا في كل أحاديثهم، ويترنمون بعظمتها القديمة، وكنا أينما انتقلنا في الريف حياناً الجمع، حتى الأطفال، التحية



بعض فقراء إيطاليا في أسمالهم البالية يروجون لغذائهم القومي المكرونة على قارعة الطريق.

الفاشيستية بمد الذراع مع المناداة بحياة إيطاليا وموسوليني، وهم شجعان، ولا يزال كثير منهم ميالين إلى المبارزة والضرب بالخناجر. أما نساؤهم فنصف متحجبات، خصوصاً في الريف، ولا يكثرون من الخروج بعيداً عن دورهن؛ فهن أشبه بالشرقيات، وسلطة الأزواج عليهن ملموسة. ويشتغلن مع الرجال في الحقول، ويحملن على رءوسهن أثقالاً مرهقة ويسرن بها بعيداً، ويزيد ذلكوضوحاً في جنوب إيطاليا.

والطعام القومي المحبوب «المكرونة»؛ تلك التي يجيدونها صنعاً وطهياً، وفي البلاد كثير من مصانعها، ويقاد يعيش الفقراء هناك عليها هي وقليل من الطماطم «الصلصة»؛ لذلك فإنك ترى بائعتها في الطرق يطبخونها في أواني كبيرة، ويمسكون بلفائفها البالغة في الطول وهم يصيحون لاجتذاب المارة، الذين يقبلون على التهامها كاملة في غير تقطيع وهم يلعقون في الإناء بشكل مُنفر. وكنا نلاحظ أن هذه طريقتهم في أكلها حتى في المطاعم الكبرى.

حدث مرة أن كنت أقطع لفائف المكرونة بسكين في أحد المطاعم، وكان من حولي كثير من الإيطاليين يلعقونها كاملة بشكل استرعى نظري وأثار سخريتي منهم، لكنني عجبت مذ رأيتهم يتهمسون وهم يسخرون مني في الوقت نفسه؛ لأنني لا أعرف كيف ألتئم المكرونة لعقا!

والقوم يستخدمون شحم الخنزير في الطبخ عوضاً عن المсли، ولقد جزعت نفسي لما علمت ذلك جزاً شديداً، وطلبت أن يشوى اللحم لي خصيصاً أو يُحمر في الزبد، على أنني كشفت بعد أن اللحم والدجاج كلّيماً مما تعافه النفس؛ لأن الحيوان لا يذبح، بل يختنق وببقى الدم جامداً فيه. ويا ليته ابن يومه! فلقد يمضي على موته أيام. كل ذلك كان من أكبر المنغصات، على أنني كنت أجد في المكرونة الشهية والفاكة الحلوة والجبن المنوع خير عوض.

(١-١) سان مرتينو

ضاحية من نابولي شاهقة العلو يقطنها طبقة الأرستقراط، بيوتها فخمة تحف بها الحدائق الغناء، ولكي نصل إليها أخذنا تراماً معلقاً. وهو يسير على ثلاثة قضبان، الأوسط منها مُسنن. وفي أعلى قطعة من تلك القرية الجميلة جلسنا في نزل يشرف على خليج نابولي، ويواجهه فيزوف. وتكسو الخضراء السفوح إلى البحر، تتوسطها الأبنية المتناثرة، تزييناً للأشجار ذات قطوف الفاكهة الدانية، حتى قيل: إن المنظر من هناك أبدع ما تتجلّى فيه نابولي على الإطلاق.

(٢-١) بمبيا

ولعلها أجدل الأماكن الأثرية هناك. أعادت إلى مخيلتنا شيئاً من العظمة الرومانية القديمة؛ لأننا رأيناها عظيمة في امتدادها ومبانيها وطرقاتها، واسترعى نظرنا ضيق الطرق وعمقها عن الإطارين الجانبيين، وعند رءوس الطرق ترى معبراً من صخور كبيرة يتحطّطاها من أراد عبور الطريق، وكلها مرصوفة بحجر البازلت. وهذا يشعر بأن المطر كان أكثر يومئذ منه الآن.

أما المبني، فبعضها بالبازلت والبعض بالأجر الأحمر، وعلى ناصية الطرق ترى حوض الماء من الصخر تعلوه عين مائية تخرج من فم سبع، وفي كل بيت بهو فسيح



وسط أطلال بمبائي ومن خلفنا فيزوف الذي غدر بالمدينة قديماً فطمرها.

تحوطه الأعمدة، ويتوسطه حوض الماء، وتقام الحجرات على الجوانب، وقد ترصف الأرض بالفسيفساء، وتنقش الجدران بالرسوم الخرافية، وفي كل بيت مقصورة للصلة يرسم بها أحد الآلهة، وأجمل الأبنية جميعاً «الفورم» أو المجمع العام، وعنه دار القضاء، ثم الإنفياتر.

كل ذلك يشعر بأن المدينة كانت مسكناً لقوم متربفين ثار من شمالها الشرقي فيزوف سنة 79 ميلادية، فأصلها — على غرة منها — ناراً بترايه الساخن، أحرق البلدة بمن فيها حرقاً غير كامل؛ لذلك ظلت البيوت حافظة لجدرانها، وبعض نقوشها وأثاثها بتشويه بسيط. وفي المتحف الذي أعد في مدخلها حيث بعض من دھمهم الرماد تبدو مجسدة، ويکاد يرتسם عليها ما لاقوه ساعة الاختناق من آلام، كذلك تعرض بعض الأقمصة والغلال والخبز وما إليها من مخلفاتهم.



بعض من اختنقوا في بمبباي وقد فاجأهم فيزوف بثورانه.

(٣-١) سرنتو

غادرنا بمبباي سائرين في طريق زراعي به بيوت قروية متنتشرة وسط المزارع لمسافة متراوية، وقلما كنا نعثر على مجموعة من بيوت في مكان واحد، ويظهر أن نظام القرى المصرية متقاربة المنازل غير متوافر هناك؛ لأن كل فلاح إيطالي يمتلك قطعة أرض يخدمها هو وزوجه وأولاده، ويقيمهون مسكنهم وسطها، وهناك تشابه كبير بين فلاحهم وفلاحنا في بعض أدوات الري، وفي السير حفاة الأقدام، وفي أكل خبز القفار، وغالبهم مثلنا كرام الطباع يسرون بالغريب.

أخيراً وصلنا سرنتو ذات المزارع الجبلية الخلابة، فأينما وليت بيصرك رأيت الأشجار والأعشاب تكاد تغطي كل مكان حتى أفاريز البيوت نفسها؛ ذلك لشدة خصب التربة التي تنقلها الرياح من أتربة فيزوف، وهناك أكلنا المكونة الشهية بعد أن شاهدنا مصانعها،

ورأيناها تنشر في الشمس على عصي طويلة، ثم شبعنا من فاكهتها اللذيذة، والضاحية ممتازة بنبيذها الأحمر المشهور باسمها. وكان فيزوف في كل هذه المدة على مقربة منا بدخانه الأبيض، ومخروطه الشاهق يُكسى بالخضراء إلى ثلثي ارتفاعه. ويمكن الصعود إليه في ترام إلى ما قبل القمة بقليل، وهناك نرتدي أحذية خشبية ونسير فوق أرض مرتجلة إلى فوهة، ويقودنا دليل إلى أسفلها وسط الغازات والأبخرة المصعدة التي تجعل المرء يتصلب عرقاً. وفي بعض الأيام لا يسمح بنزولها، وذلك إذا كان البركان غاضباً وأبخرته كثيفة؛ مخافة الاختناق.

(٤-١) سلفاتارا

قصدنا الجانب الشمالي من نابولي في طريق صخري كثير الليات الثعبانية، مناظره جبلية ذات أشجار باسقة، وزهور عبقة تبهر بألوانها الأنوار، حتى وصلنا إلى بركان سلفاتارا، وهو فوهه هابطة لبركان سعتها نحو كيلو مترين ونصف. ثار سنة ١٩٩٨ وطمر بعض القرى المجاورة، ثم خمد وظل كذلك حتى بدأت تتجدد حركته منذ سنين. به عدة فتحات تتصل بجوف الأرض، بعضها يقذف ببخار أبيض، والبعض بأحوال حارة، والبعض برمل أبيض تحركه الأبخرة من تحته، فيبدو كالمنصهرات المضطربة.

ويقال: إن له صلة بفيزوف؛ لأنه يهدأ كلما نشط فيزوف، والعكس بالعكس، وتُكسى أرضه بالفوسفور والزرنيخ والنشادر وقليل من البازلت، وإذا ضربت الأرض بحجر سمعت رنيناً يشعر بأن باطنها خاوٍ. ومن غريب أمره أنك إذا أشعلت ناراً زاد تصاعد البخار من كل مكان حولك بكثرة عجيبة تكاد تخفي عنك من تراه من حولك، ولا يُعلم سر ذلك إلى الآن، ويأخذ القوم منه مسحوقاً كالجص لصنع التماثيل، ويطلق على البركان اسم فيزوف الصغير.

قصدنا إلى حمام نيرون في شمال سلفاتارا، وهو نفق في الجبل طوله زهاء نصف كيلومتر كثير التعرج، دخلناه من فتحة فكنا نشعر بزيادة الحرارة والأبخرة، تبعقه رائحة الكبريت، حتى إذا ما قاربنا نهايته كنا نتصبب عرقاً. قيل: إن نيرون كان يزور الجهة ويستشفى بمائه، وله سرير من الصخر كالمسطبة، وصخرة يقال: إنه سجن فيها أمه حتى ماتت، وله هناك برج من الآجر الأحمر، وقلعة من الصخر تشرف على البحر.

(٥-١) كابري

عبرنا خليج نابلي في باخرة من الشمال إلى أقصى الجنوب في ساعتين ونصف، وهناك وصلنا صخرة كابري، وارتفاعها ٥٦٥ متراً، وهي مقعرة الوسط يبدو صخرها مشرقاً على الماء في استقامه مخيفة، تكسوها الخضراء، وتتوسطها الفلات، يؤمها المرضى للاستشفاء. والضاحية كثيرة المقاهي والأنيزال، ذات طرقات جبلية متلوية، وغالب صخرها جيري تخللها كتل بركانية كثيرة، وتسقى بماء المطر الذي يدخره القوم في صهاريج، وإذا نفذ الماء من صهاريج سار السكان بعيداً ليقتربوا من جيرانهم.



داخل كهف جرتاتزورا بنابلي.

وفي أقصى الغرب مغارة يسمونها جرتاتزورا؛ أي الكهف الأزرق، دخلناها من فتحة ضيقة لا تكاد تسمح لأكثر من زورق نحيل أن يخترقها؛ لذلك استلقينا في الزوارق على ظهورنا، وما كدنا نجتاز المدخل حتى بدت من الداخل فسيحة شاهقة. ولما كان غالب صخرها مشرقاً على البحر في قبو تسرب الضوء إليها من تحت الماء أسفل حافتها الصخرية، فأكسب الماء لوناً أزرق صافياً، وضوء من أسفله، بحيث إذا غمست يدك في الماء

بدت بيضاء منيرة كأنها شعلة من كهرباء، وكانت تبدو حافة الزورق الملامسة لسطح الماء وكأنها إطار من لجين.

(٢) روما

برحنا نابلي الساعة التاسعة صباحاً صوب روما التي وصلناها في منتصف الساعة الثانية بعد الظهر، وكانت المناظر كلها جبلية بدعة إلا قليلاً من الوهاد تُكسى بالمزارع كالكتان والذرة والسمسم، وكانت الدرجات تُكسى بالكرום، والجبال بالأعشاب، والطريق كثيراً الليلات والأنفاق، ولم يسترع نظرنا بأداء الأمر شيء غريب في روما سوى أبنيتها الضخمة، وتماثيلها العديدة التي تتوسط كل الميادين في إسراف كبير، والقوارات التي يردها الماء من الينابيع الطبيعية كأنه مثلاً كاملاً العذوبة، وقد تفنن القوم في تصميمها، وتنسق عيونها، وتتدفق مائتها بما يثير الدهشة والإعجاب.

(١-٢) كنيسة سان بيترو

زرنا كنيسة سان بيترو أكبر كنائس الدنيا، فكانت — والحق يقال — آية في الفن، ومثلاً للعظمة، أمامها ميدان رحب تتوسطه مسلة مصرية قديمة علوها ٢٥ متراً، وضع في قمتها صليب — وفي روما عدد كبير من مسلاتنا — وعلى جانبيها فوارستان، ويحيط بالميدان من جانبيه بهوان من الأعمدة في أربعة صفوف متوازية، كل صف يُكون قوساً تؤدي خطوط النظر بين عمدها إلى بؤرة واحدة، إذا وقفت فيها بدت صفوف الأعمدة وكأنها صف واحد، ويعلو كل تلك الأعمدة تماثيل للقديسين.

أما داخل الكنيسة، فليس في مقدورنا أن نصف ما حوى من معجزات الفن، فمن تماثيل ينقصها النطق والحركة إلى صور زيتية وفسيفسائية تبهر العين، إلى مظاهر دينية رهيبة. وأعجب ما هناك القبة ذات العلو الشاهق صعدنا في قبوها الأسفل ٤٦ سلماً، ومع ذلك لم نأت على آخرها، وفي قمتها كرة مفرغة تسع نحو العشرين نفساً، مع أنها تبدو من الميدان وكأنها كرة القدم.

كل ذلك من هندسة ميخائيل أنجلو، وتبطنها من الداخل نقوش من الذهب والمزيكو يقف الماء أمامها في ذهول. أمر بإقامة الكنيسة قسطنطين على المكان الذي كان يسمى ملهى نيرون، والذي قيل: إن القديس بطرس قتل فيه. وفي عيد الميلاد من سنة ٨٠٠،



سان بيترو أكبر كنائس الدنيا وتزين ميدانها مسلة مصرية.

توج البابا ليو الثالث الإمبراطور شارلمان هناك. وزاد القوم فيها كثيراً، وأآخر جزء زيد بها قبة ميخائيل أنجلو، ويقال: إن الكنيسة تكفلت عشرة ملايين من الجنيهات، وينفق على إصلاحها سنوياً ٧٥٠٠ جنيه، وإلى يمين المدخل تمثال لقسطنطين، وإلى اليسار آخر لشارلمان، وهناك تمثال نحاسي للقديس بطرس اعتاد الزوار تقبيل أقدامه أو لسها، حتى كانت تتمحمي تجاعيد الأقدام من كثرة اللمس. وفي الحفلات الكبرى تضم الكنيسة من حجاج الكاثوليك ثمانين ألفاً يباركم البابا برفع يده.

قصدنا إلى زيارة كنيسة سان بيترو الصغير لنرى تمثال موسى ذاته الصيت، وهو من نفائس الحفر لميخائيل أنجلو، ذاك العبقرى الذى كانت له طريقة الخاصة في الحفر مذ كان يتصور أن الشخص الذي يريد تمثيله موجود داخل الصخر، وكأنه يريد أن يزيل ما يعلوه كي يظهر مجسمًا. ولقد أعجب هو نفسه بتمثال موسى حتى إنه لما أتمه خاطبه في نغمة الغاضب قائلاً: «لم لا تتنطق». كانت بينه وبين رفائيلو منافسة حادة، فحدث أن أحد البابوات أراد نقش قبة «كابيلا سيستيني» في الفاتikan، فسأل الخبراء فيمن أقدر على



مدخل مكتبة الفاتكان ونقوشها الساحرة.

إنجازها، فخَبَرُوهُ عن ميخائيل أنجلو. وكانوا بذلك يرثمون توريطه فيها، حتى إذا ما بدا عجزه الفني سقط في نظر العالم.

ولما كلف بها استحضر كبار الرسامين الأجانب فلم يعجبه رسمهم فأغفلهم، وأغلق على نفسه القبة زهاء أربع سنوات متواليات أنجزها في خلاها، وكان يعمل صباح مساء حتى إن عضلات رقبته تصلبت، وأصبح غير قادر على النظر إلى الأرض، فبُكِت منافسوه لما رأوا إبداع آياته، من بينهم رفائيلو الذي سعى عبثاً أن يقوم بتصنيف في رسم تلك القبة كي يستعيد مكانته بين رجال الفن. وكان ميخائيل أنجلو مبدعاً في الحفر والتصوير والهندسة كما شهد بذلك تمثال موسى، وتصوير كابيلا سيستييني، وقبة سان بيترو، ومات مسنّاً. أما رفائيلو فمات شاباً، وكان أرستقراطياً في معيشته وفنه على عكس ميخائيل الذي كان عنيباً حديدي الإرادة.

(٤-٢) قصر الفاتكان

مملكة البابا المستقلة عن حكومة الدولة، فله حرسه في أردية حمراء رهيبة، وقد انتخبهم من جنود سويسرا الأمناء — و كانوا قبل الحرب من النمسا — وهو الحاكم بأمره داخل قصره كثیر الرحبات والحدائق، فخم البناء، فهو أكبر قصور الدنيا. به عشرون ردهة، وأحد عشر ألف حجرة، بدئ صغيراً وزاده البابوات تدريجاً. وقيل: إن شارلمان سكنه مرة ولم يصبح مسكن البابوات إلا بعد عودتهم من إفنيون، وقد رأينا معارض القصر، وفيها الهدايا النفيضة التي قدمت للبابوات في العصور المختلفة من ملوك العالم قاطبة، ومن بينها جرة «فاز» من الرخام الأحمر المجزع عظيمة الحجم قدمها محمد علي باشا الكبير.

أما النقوش والزخارف التي بالجدران، فمن بدايـع الفن لكتـار المصـورـين، نـصـخـ منـهـمـ رـفـايـلوـ وـمـيـخـائـيلـ أـنـجلـوـ، ذـاكـ الـذـيـ صـورـ «ـكـابـلاـ سـيـسـتـيـنـيـ»ـ، وـالـصـورـ الـتـيـ إـلـىـ يـمـيـنـهـاـ تمـثـلـ حـيـاةـ الـمـسـيـحـ، وـالـتـيـ إـلـىـ يـسـارـهـاـ تمـثـلـ حـيـاةـ مـوسـىـ عـلـيـهـمـاـ السـلـامـ، وـأـعـجـبـهـاـ سـقـفـ الـقـبـةـ الـتـيـ يـدـهـشـ الـمـرـءـ مـنـ مـقـدـرـةـ الـمـصـورـ وـدـقـتـهـ فيـ مـرـاعـةـ قـوـاعـدـ الـمـنـظـورـ فيـ ثـنـيـاـ الـبـنـاءـ، وـكـذـلـكـ مـنـ خـيـالـهـ الرـائـعـ السـاحـرـ. وـلـعـلـ أـجـمـلـ أـبـهـائـهـ الـمـكـتـبـةـ الـفـاخـرـةـ. وـتـحـتـوـيـ فـوقـ نـقـوـشـهـ الـقـيـمةـ مـجـمـوعـةـ نـفـيـضـةـ مـنـ الـمـطـبـوـعـاتـ الـتـيـ تـزـيدـ عـلـىـ رـبـعـ الـمـلـيـونـ، وـنـحـوـ ٣٤ـ أـلـفـ مـنـ الـمـخـطـوـطـاتـ.

ويتصـلـ بـالـقـصـرـ طـرـيقـ سـرـيـ طـوـيلـ إـلـىـ قـلـعـةـ قـدـيمـةـ اـسـمـهـ «ـكـاسـتـيلـ سـانـتـ أـنـجلـوـ»ـ، تـشـرـفـ عـلـىـ نـهـرـ التـيـرـ، وـكـانـ يـحـتـمـيـ فـيـهـ الـبـاـبـاـ إـذـاـ مـاـ تـعـرـضـ لـخـطـرـ. وـتـلـكـ الـقـلـعـةـ بـهـاـ مـسـكـنـ لـلـبـاـبـاـ، وـغـرـفـ لـلـجـنـدـ، وـسـجـونـ غـائـرـةـ فـيـ الصـخـرـ، وـمـخـازـنـ لـلـزـيـتـ كـانـ يـعـلـىـ بـهـاـ لـيـصـبـ عـلـىـ الـأـعـدـاءـ. وـلـقـدـ بـنـاهـاـ إـمـبـراـطـورـ هـادـرـيـانـ الـرـوـمـانـيـ لـتـكـونـ قـبـرـاـ لـهـ، لـكـنـهـ حـوـلـتـ فـيـماـ بـعـدـ إـلـىـ حـصـنـ منـيعـ.

(٣-٢) الكلوسيو

وـهـوـ أـكـبـرـ مـلـهـيـ فـيـ الـعـالـمـ «ـتـيـاتـرـوـ مـدـرـجـ»ـ يـسـعـ ٨٦ـ أـلـفـاـ، وـلـعـلـهـ أـعـظـمـ الـأـثـارـ الـرـوـمـانـيـةـ الـبـاقـيـةـ. أـقـيـمـ عـلـىـ شـكـلـ أـهـلـيـلـجـيـ دـاـخـلـهـ مـدـرـجـ فـيـ أـرـبـعـةـ طـوـابـقـ: الـأـوـلـ لـلـقـيـاصـرـةـ، وـالـثـانـيـ لـلـأـشـرـافـ، وـفـيـ وـسـطـهـ رـحـبـةـ فـسـيـحـةـ كـانـتـ تـقـامـ فـيـهـ الـأـلـعـابـ، وـمـنـ بـيـنـهـاـ مـحـارـبـةـ الـضـوـارـيـ

الـتـيـ كـانـ يـقـتـلـ مـنـهـاـ أـرـبـعـةـ آـلـافـ كـلـ عـامـ، وـكـانـتـ تـقـامـ الـمـلاـهيـ فـيـ مـدـةـ مـائـةـ يـوـمـ، وـالـصـرـاعـ بـهـاـ عـلـىـ أـنـوـاعـ: فـتـارـةـ كـانـتـ تـطـلـقـ الـوـحـوشـ يـفـتـرـسـ بـعـضـهـاـ الـبـعـضـ، وـطـوـرـاـ كـانـتـ تـطـلـقـ

السباع على فئة من المجرمين المعاقبين لتفتك بهم، وتارة يصارع الأبطال بعض الوحش، أو بعض إخوانهم من بني الإنسان ويرديه قتيلاً. كل ذلك وسط تهليل القوم وابتهاجهم. هذا ضرب من ملاهي الرومان التي تدل على مبلغ وحشيتهم وقسوة قلوبهم، وطالما سفكت السباع من دماء شهداء المسيحية في تلك الدار.



ملهي «الكلوسيو» بروما، وقد أطلق السباع ليفتكتوا بال مجرمين من بني الإنسان.

ولعل أجمل الآثار الحديثة أثر فكتور عمانوويل، ولا يزال العمل سائراً فيه على ساق وقدم، وهو حقيقة مثل للعظمة والدقة في هندسة البناء بمدرجاته وعمده ونافوراته، يتوسطه تمثال نحاسي مطلي بالذهب لفكتور عمانوويل وهو يعتلي جواداً. وقد أقيمت في بطن الحصان حفلة جلس فيها ثمانية وعشرون شخصاً، فكان الإيطاليين يريدون أن يثبتوا للعالم أن عظمة فن العمارة ونحت التماثيل لا تزال - ولن تزال - تكسبهم قصب السبق كما كان قديماً، وإن كان الكثير يعدون ذلك نوعاً من النعرة الجوفاء يقصد بها مجرد الدعاية الكاذبة؛ لكثرة ما تكلفة من نفقات، خصوصاً في هذا العصر الذي تظهر فيه إيطاليا بعجزها المالي.

(٤-٢) ضواحي روما

أوستيا

وهي مصيف على البحر يبعد عنها بنصف ساعة، أسسه موسوليني حديثاً، فأضحت متنزهاً جميلاً، ومستحماً عاماً، وهو إلى جانب مدينة أوستيا التغر الروماني القديم. ولقد أمضينا بها سحابة يوم ممتع، وبيننا كنا نمرح على شاطئ البحر إذ سقطت حقيبة النقود من جيب أحد أصدقائنا المصريين، وكان بها نحو «١٢٠٠ ليرة»، وبعد أن كدنا ننأس من وجودها خطر لنا أن نسأل بعض الحراس عند مدخل الحمام. وما كان أشد إعجابنا بأمانة هؤلاء الناس حين وجدناها عنده! وقد عثر عليها حوذى فقير فلم تُسْرُّ له نفسه أن يأخذها، ودفعته أمانته إلى تسليمها. فضيلة جميلة هي أجرد بنا معشر المصريين.

فرسكاتي

وهي ضاحية إلى جنوب روما طريقها جبلي، تُكسى جوانبها بالكروم في أغصان صغيرة تقام على أحطاب مثلثة، وتمرها وافر للغاية؛ ولذلك شهرت الجهة بالنبيذ المسمى باسمها، وبالمدينة عدة «فلات» فخمة وسط حدائق غناء تثبت أنها كانت مسكن الطبقات الراقية قديماً، وأجمل الفلات أنديني، وبها نافورة في خمسة درجات علو الواحد خمسة عشر متراً، والرابع منها يعلوه عمودان تدور المياه حولها في شكل حلزوني إلى أسفلها، ثم تهوي في مجموعة من الشلالات، وكانت مساكن لبعض البابوات قديماً.

تفولي

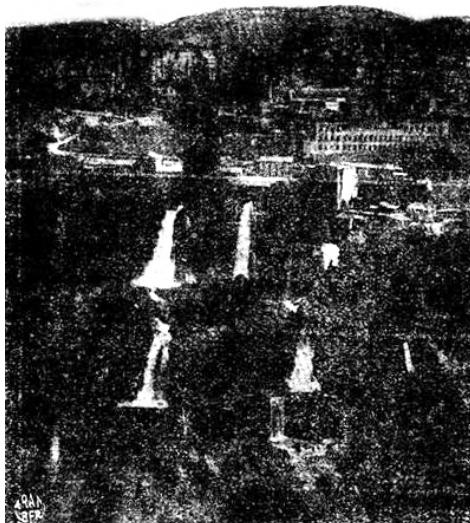
وتبعد عن روما بساعة ونصف بطريق متعرج يخترق أفقاً عدة، وتكتسو رباهما الخضراء والكروم، وبها مجموعة من «فلات» ذات تنسيق غريب، أشهرها «فلاست» على اسم أحد الكاردينالات، عاش منذ أربعينات سنة، وفيها من النافورات ما فاق كل شيء جمالاً وفناناً، ومنها ينبوع في ثلاثة صفوف بكل صف مائة نافورة.

وفي تفولي مجموعة من الشلالات الطبيعية الشاهقة ينزل منها ماء نهر «أينو» فرع التiber في شعاب عدة، وقد يبلغ علو أكبرها مائة وعشرين متراً، نزلنا إلى أسفلها من طرق مختنقة كثرت لياتها، وللماء فيها دوي مخيف، وهو يخرج من بين الصخر مختنقًا، وفي

جولة في ربع أوروبا

سرعة مدهشة، ويستخدم غالبها في إدارة الأرحاء لتوليد الكهرباء، ومنها تثار مدينة روما كلها.

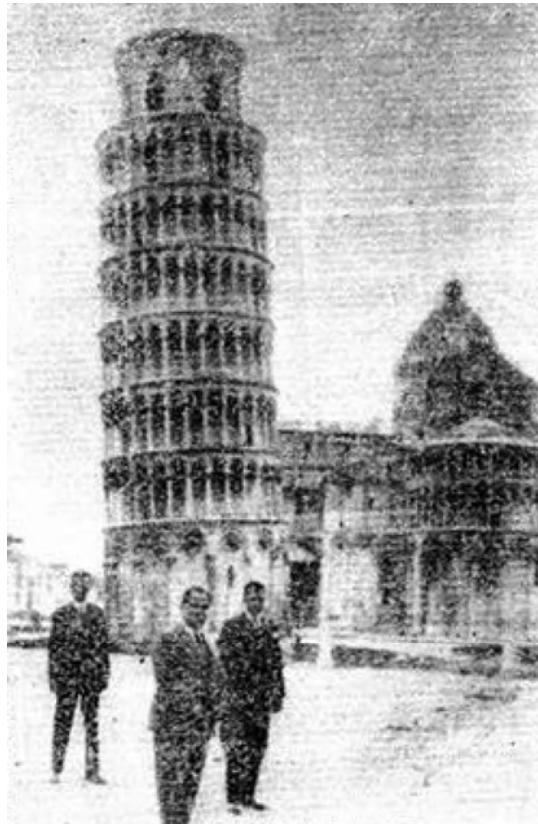
ولعل تفولي أجمل ضواحي روما التي تتجلى فيها الطبيعة برونقها الجذاب، وروعتها الساحرة، وقد كانت فيما مضى مصيفاً لقياصرة ولطبة الأستقراطيين.



ضاحية تفولي بروما بشلالاتها العديدة.

(٣) بيزا

غادرنا روما في ١٢ يوليه إلى بيزا، فوصلناها في ست ساعات، وهي بلدة صغيرة لا بأس بنظافتها. وأجمل ما يُزار بها كنيسة الدوومو، وهندستها قوطية بد菊花 النقش من داخلها، ويجانبها قبة التعميد، وأقيمت منعزلة عنها، وفي هندسة غريبة من شأنها أن تكبر موجات الصوت فيرين صدأ بشكل مزعج، حتى إنك لو غنيت بصوت خافت دوى واستمر رنينه في كل مكان نحو ست عشرة ثانية، وتسمع تصفيق اليد وكأنه الرعد يقصف بهزيم مخيف.



أمام برج «بيزا» المائل أحد عجائب الدنيا.

وقد بنيت من داخلها في شكل الناقوس، وكان كاروزو الملحن الإيطالي المشهور يصور أنغامه فيها، ذاك العقربي الذي خلف لبنيه ثروة تقدر بثلاثة ملايين من الجنيهات، وقد زار مصر سنة ١٩٠٦ ورحب في سماع أجمل المغنيين عندنا، فغنوه المرحوم الشيخ سلامة حجازي، فطرب له كاروزو ودهش لما علم أنه لا يربح أكثر من خمسين جنيهاً في الشهر، وقال له: «تعال معى أعلمك الأنغام الإفرنجية وأنا كفيل لصوتك الرخيم بمائة جنيه في اليوم». أما هو فكان يربح في يومه ثلاثة جنيه في أيامه الأخيرة.

وأعجب ما في الكنيسة برجها المائل الذي يعد من الأعاجيب؛ لأنه يعلو في الجو زهاء ٥٥ متراً، وهو مائل نحو أربعة أمتار وثلاث عن المسقط الرأسى، وبه سبعة طوابق شاهقة من رخام أبيض، مجموع درجاتها ٢٦٥، ارتفيناها فرأينا في أعلى سبعة أحجام مدرجة الكبر، وزن أكبرها ٣٧ قنطاراً، وهي في مجموعها تمثل الألحان الموسيقية السبع. بُني البرج سنة ١١٧٥، وإنك لتحسُّ بشيء من الخوف وأنت تراه يميل رغم ضخامته، ويخيل إليك أنه لن يستقر مكانه، ولا تكاد تسيغ لك نفسك أن تعطيه خوفاً وحذراً.

قيل: إن تصميمه وضع مائلاً هكذا منذ البداية، على أن الراجح أن ميله نتيجة لهبوط في الأرض الضعيفة كثيرة الزلزال هناك، وكان «جالليو» الفلكي يحاول إثبات قوانين الجاذبية بإلقاء الأثقال من ذروته.

(٤) جنوا

قمنا إلى جنوا وكان الطريق جبلياً، وأخذت تزداد طيات القشرة الأرضية وتنعد شيئاً فشيئاً حتى كان القطار يسير على حافة البحر والجبل يقاربها من الشرق، وجل الجبال تُكسي بالخضراء وشجر الزيتون والكرم؛ ولذلك لا تعجب إذا كان أجود زيوت العالم يعصر هنا، خصوصاً في مدينة لوكا، ثم بدأ لون الجبل يتغير على بُعد، فخلناه مغطى بالجليد، ولكنه اتضح أنها منطقة غنية بالرخام الناصع، فكنا نرى كتل الرخام الملؤن تغطي أرصفة المحطات إلى مسافات بعيدة، وبخاصة في بلدة كرارا، التي أصبحت شهرتها في الرخام والمرمر عالمية؛ بها وحدها نحو سبعمائة محجر، وبلغ ما تصدره من الرخام سنوياً مليوناً من الأطنان، وكفاحاً فخرًا أن رخام كنائس الدنيا الكبيرة مستمد من محاجرها.

وبعدها كان طريقنا مجموعة أنفاق تزيد على الثلاثين عدداً، وقد استخدمت هنا القاطرات الكهربائية التي كانت تسير بسرعة البرق «نحو ١٥٠ كيلو متراً» حتى كانت تبدو فتحات بعض الأنفاق المطلة على البحر كوميض برق يكاد يخطف البصر. وغالب القاطرات في شمال إيطاليا تسير بالكهرباء بفضل كثرة القوى المائية؛ ولذلك تركزت غالب الصناعات في الشمال، نذكر من بينها مصانع الأصوات والسيارات «فيات» في تورين، ومصانع الحرير في ميلان.

وقد زرت تورين في عودتي من الرحلة بعد أن اجتزنا الحدود الفرنسية في مودان، ثم جزنا مجموعة أنفاق «مونت سني» التي لبث القطار يسير في أطولها فوق عشرين

دقيقة بسرعة الكهرباء، ثم دخلنا تورين التي بدت صناعية قديمة تعوزها النظافة في المباني والطرق، وبعدها وصلنا جنو، وهي أكبر موانئ إيطاليا التجارية، عظيمة الاتساع، شاهقة الأبنية، صخرية السواحل، قريبة الشبه بنابلي في أنها تقام على رُبُّى عالية؛ لذلك كانت طرقها منحدرات وعرة.

وأعجب ما فيها مبانيها، فهي تتتألف في الغالب من سبعة أدوار، ولكلّة المرتفعات يغلب أن يكون لكل دور باب على طريق عامة، ولكل دور حديقة معلقة. والمدينة أنظف من نابولي كثيراً، وتشتهر بمقابرها التي يقال إنها أجمل مقابر الدنيا، فهي في غاية التنسيق تقام كلها من الرخام الأبيض تزيينها التماشيل في ردهات بدعة. وفي العراء وسط المزارع تجد مقابر الفقراء، وعليها شواهدتها تصطف في نظام دقيق. وفي حي قديم قدر من المدينة بيت صغير لخرستوف كولب - كاشف أمريكا - نقش عليه اسمه، وحفظ تذكاراً له، وأمامه نُزل كولب الذي تناولنا فيه طعام الغداء. والمدينة تفاخر بأنها أنجبت ذاك المستكشف العظيم، وتقيم له تمثلاً في أكبر ميادينها.



казينو مونت كارلو عاصمة الميسر.

(٥) الرفييرا

غادرنا جنوا السابعة صباحاً قاصدين فرنسا عن طريق الرفييرا، وهو ساحل جبلي جميل بجانب القطار، هناك البحر ومن ورائه الرّبّي تكسوها الخضراء النّظر، وتتّناثر على جوانبها المباني، وأكبر المدن الإيطالية عليه سان ريمو. وهي مزار صحي منسق يغص بالحدائق، وتزيّنه بساتين النخيل الباسقة في كل مكان.

وعند مدينة الحدود «فنت ميليا» انتقلنا إلى القطار الفرنسي الذي أقلنا إلى مونت كارلو، فوصلناها الثامنة مساءً، وإذا بها بدت جنة حقة يضمها خليج صغير غصّت منحدراته بالأبنية الفخمة، من خلفها جبل شاهق، تلتف النظر بها نظافتها التامة، وسكنونها الجميل، فهي مدينة يبدو عليها علائم الأرستقراطية في مبانيها وشعبها وزلاّتها، ويحق لها أن تسمى عروس المتنزهات، وهي ضاحية لماناكو، تلك الإمارة المستقلة عن فرنسا، ولها حدودها وأنظمتها الخاصة.

وبالمدينة عدد لا يحصى من الأبنال الكبيرة يؤمّها سراة العالم طلباً للنزهة الهدائة، ويغلب أن يصحب ذلك لعب الميسير، فهي عاصمة الدنيا في هذا المضمار. وقد زرنا كازينو مونت كارلو ذات الصيت الذي لا يُؤمّه إلا غني مفرط، ذو جاه كبير، يجلس على مناضد الميسير ويقامر بآلاف الجنيهات. وتلك المناضد عظيمة الامتداد، ترى القوم منكبين عليها تعلو وجوههم علامات القلق في شبه ذهول، ومن ورائهم خزائن الصيارة على أهبة تقديم النقود للمقامرين تسهيلاً لهم وإغراء.

ولديري الملعب نسبة كبيرة من المال المتداول، وتتقاضى الحكومة من هذه إتاوةً تعد أكبر مواردها، وعجب ألا يسمح لأبناء البلد باللعب؛ لذلك لم يسمح لنا بالدخول إلا بعد الاطلاع على جوازات السفر ليتأكدوا أننا من الأجانب، والمكان من الفخامة بحيث يعجز القلم عن وصفه، فمن ردهات وأبهاء زينت بالثيريات والنقش والفرش إلى درجات وحدائق تتدلى إلى البحر، وتتوسطها جواسق الموسيقى، ويجب ما بين أطرافها الحسان الغيد والولدان المتألقون، يتهادى كلُّ في مشيته في تكلف شديد، ويرفل في مترف ملابسه، وقد أشجت نقوشهم أنغام الموسيقى وهم منصتون لها وكأنما على رءوسهم الطير.

فالحالة الاجتماعية في مونت كارلو تثير الدهشة من عدة وجوه، فالنساء قد أخذن من الحرية بنصيب كبير ربما كان خارجاً عن حد اللياقة، ولطول سهر القوم لا يبدأ العمل في الصباح إلا بين الساعة التاسعة والعشرة، فلا تفتح المتاجر ولا يسير الترام، ولا تكاد ترى مارة قط قبل هذه الساعة. قصدنا من ضواحيها مانتون، فلم نر فيها من أبهة



الحلاق المتجول يقوم بعمله على قارعة الطريق في الأحياء الفقيرة من فرنسا.

مونت كارلو شيئاً، وكان يبدو على فلاحيها الضعف الصحي، والضنك في المعاش، تعوزهم النظافة. ويظهر أن الطبقات الدنيا في ريف فرنسا فقراء معوزون، وربما يعزى ذلك إلى الارتباك المالي وعدم استقرار حال الفرنك.

ويجيد غالب السكان الإيطالية، خصوصاً في الضواحي المجاورة لإيطاليا، وقد ظهر من محادثة رجل شيخ في مانتون أنهم يمدون بسبب إلى الطليان، ويودون الانضمام إليهم، ومن هنا فهمنا مرئي التهديد الذي لوح به موسولياني مراراً لفرنسا بضم الرفيرا إلى بلاده.

أما الجو فحار يكاد يشبه صيف مصر، فالدرجة تزيد على 30° م ، وسماء البلاد صافية كسمائنا، والهواء راكد تحجب أنسمته الجبال من خلفه، حتى إن جو بعض الليالي لا يطاق؛ ولذلك لم تصلح البلاد أن تكون مصيفاً، فهي مشتى جميل. غادرنا مونت كارلو قاصدين مرسيليا، وكان الجو شديد الحر بحيث كان العرق يتتصبب من جباهنا بغزاره، وقد لازمنا ساحل البحر، وأخذت الجبال تجانبنا حتى كنا بين البحر والجبل الشاهق،



على الحدود بين إيطاليا وفرنسا، ويرى الفقراء يغسلون ثيابهم في مياه الغدران القدرة، والمنظر شبيه بريف مصر.

واخترقنا عدة أنفاق، وأجدر البلاد بالذكر «نيس»، وهي مشتى مشهور بدا بقصوره الفاخرة وحداثقه الجذابة.

ومن ورائها «جراس» مركز تجارة الأعطار؛ إذ ترى الحقول قد فرشت بمختلف الزهور التي يعقب عبيرها الأجواء إلى مسافات بعيدة، وترى الفتيات تحت قبعاتهن التي جدت من سعف النخل دائمات على قطفه لاستخراج زيتها بعد غمره في الكحول مباشرة. أما رواسبه فتعمل منها المربي، وتكتفي جولة في أحد شوارع المدينة لتعطير ثيابنا أسايبع طويلة.

وكأن جميع القرى التي كنا نمر بها مبعثرة على سفوح الجبال جعلت مأوى لوفود السائحين، خصوصاً في الشتاء؛ لذلك ترى جمهور المتطفلين الذين يؤمدون الرفيرا للاستفادة من موسم السائحين بدعوا ينزلحون أفواجاً في الربيع إلى المصايف، أمثال إكس لبان وشامونيكس وماشا كلها.

وصلنا مرسيليا أكبر ثغور البحر الأبيض وليس به ما يجذب الأنظار سوى أنه عظيم الامتداد يشبه الإسكندرية القديمة، ويفوقها في ضواعته لكثره الحركة التجارية في الطرق وفي الميناء.

(٦) ليون

قمنا من مرسيليا السادسة صباحاً صوب ليون، وكنا نحاذى نهر الرون سريعاً التيار، وفي الماء، طفلي اللون، تحفُّ به سهول فيضية أفسح ما تكون في شرقه، وتحده الجبال القليلة العلو على جانبيه. وكانت السهول تكسى بالنبت، وتشقه القنوات، مما أذكرني ببلادنا الحبوبية، إلا أن الشجر هناك كثير، والربى تكسى بالخضراء. وقد جزنا عدة مدن من بينها أفنيون - وكانت يوماً ما مقرّاً للبابا - وفالانس، وما قاربنا ليون أخذ الوادي يختنق، وبدت مداخن المصانع على بعد، ثم عبر القطار الرون ودخل المحطة ظهراً.

جُبنا أطراف ليون بسيارة، فألفيناها تنقسم إلى ثلاثة أجزاء: الجزء الأول شرق الرون، وغالبه منتزهات وأندية للألعاب. وهنا شارع ممتد أقيمت به الأبنية على جانبيه لتكون معرضًا صناعيًّا عامًّا يقام في مارس من كل عام، والجزء الثاني غرب الساعون راقد الرون، وغالبه مرتفعات اعْتَلَّنا أحداها، وزرنا في قمته كنيسة «الباسليك» من الطراز القوطى الفاخر، وبجانبها برج من الحديد شاهق العلو تضاءء في ذروته أنوار الكشف بعض الليالي.

ومن هذا المكان تتجلّى ليون بنهرها في مرأى جذاب، والقسم الثالث يقع بين النهرين، وبه غالب الأبنية الفخمة، ودور الحكومة، والغرف التجارية من بينها «جالاري لافايت»، وقد زرنا معرض الفن الجميل، وبه مجموعة قيمة من الصور الزيتية القديمة والحديثة، وبعض التماضيل ومخلفات الملوك الأقدمين، والنهران يسيران متوازيين، وفي حجم متساوٍ غير أن تيار الرون نهاية في السرعة، وما وله عكر تشوبيه مادة طفلية على عكس الساعون قليل الماء، هادئ التيار، مخضر اللون.

وقد زرت معرض الحرائر، وفيه مجموعة من الأنوال القديمة، وكيف تطورت إلى شكلها الحديث، وتعرض بعض الأنسجة القديمة، وقد وُشِّيت بالذهب، وزُينت بالزخارف والصور الفنية التي تشهد بما نالته ليون من التفوق على جميع مدن الدنيا في نسج الحرير. وقد زرت أحد المصانع تدار أنواله بالكهرباء، وينسج به الحرير المهفهف في ألوانه البديعة، وغالب عماله من الفتيات، ويُكافَد بيع الحرير بأنواعه في جميع الحوانيت.

(٧) إكس لبان

في خمس ساعات وصلنا إكس لبان، وكنا طوال الطريق نسير وسط المزارع والربيع البدية، وهبطنا نزلاً فاخراً، وقمنا بجولة في القرية فإذا بها باللغة التنسيق وسط الربي المكشوف بالخضرة، تحوطها المساليل المائية السريعة، وقد شهرت بمياهها المعدنية والكبريتية؛ ولذلك كانت مستشفى يؤمه أمم مختلفة لعلاج الأمراض الجلدية والكبدية. وقد رأينا في جانب من المدينة نبع عين كبريتية داخل مغارة في الصخر عميقه متلوية حفرها الماء طوال السنين، وجعل في جدرانها وأسقفها تجاعيد وفجوات عجيبة سرنا داخلها طويلاً في ظلام حالك، وحرارة شديدة، على أن القوم حصروا الماء في أنابيب تؤدي إلى الحمام الكبير، وغور العين ثمانون متراً، وحرارتها 48°م .

ومن الجهات الجديرة بالزيارة هناك خانق سيروز Sierroz وبه مجموعة من جنادر تطل عليها الأشجار، ويُسخر ماؤه السريع في توليد الكهرباء، وبالمدينة كازينو هام للعب الميسر شبيه بказينو مونت كارلو.

(٨) شامونيكس

قمنا صوب الشرق، وبعد اجتياز بلدة «أنسي» التي تقوم على بحيرة هادئة جميلة أخذنا نعلو تدريجاً، وسارت القاطرة بالكهرباء، وكنا نرى على الجانبين شاهق الجبال تكسوه الأشجار، وتجري من بينها المياه البيضاء في شلالات وغدران لا حصر لها. وكانت طبقات الصخر كالأردواز، وفي رقائق شستية ومائلة ميلاً مخيماً، والشجر ينبع من بين الصخر في استقامة عجيبة. وصلنا شامونيكس على علو ١٢٣٠ متراً. تقوم من حولها الجبال الشاهقة، وقد بتنا ليلتنا في برد قارس زمهرير مذ كانت درجة النهار أقل من سبع، والليل أشبه بليالي ديسمبر وينابير في مصر، لا بل أقصى منها برداً، وكان السحاب يغطي قطعاً من الجبال كأنه الدخان، ويسقط مطرًا وابلاً استمر إلى الصباح حين قصدنا ثلاثة.

(١-٨) ميردي جلاس

فسرنا في الجبل صعداً في ليات عجيبة وسط الأعشاب الجبلية وأشجار الصنوبر الشاهقة القاتمة، وكلما زاد صعودنا انكشفت لنا قمم أخرى لا نهائية، ودقت قطرات المطر، فكانت رذاذًا، وكانت تبدو الشمس مشرقة علينا في أعلى الجبل، بينما كانت السحب كثيفة تخفي الشمس عن المدينة من تحتنا، وكانت تنقش الربي النائية عنا بقع بيضاء وضاءة من الثلج، تنزل منها سيول الماء كقنوات اللبن الخالص، وبعد أربع ساعات في هذا الصعود، وصلنا نزلاً على الميردي جلاس تناولنا الغداء فيه.



نستريح قليلاً من وعثاء الصعود إلى ثلاثة «ميري جلاس» التي تبدو خلفنا.

وكانت الحرارة هناك أربع درجات، والرياح متوسط السرعة يذرو في وجوهنا هباء كالقطن من الربي المجاورة، وهو الثلج المتساقط من السماء، ثم اقتادنا دليل عبر الثلاجة وهي متسلية في وادي فسيح ثلجه مصمت كثير التغصنات والشقوق، وكان الماء يجري وسطها بخりير يسترعى الأسماع، وكان لون الثلاجة ضارباً إلى الزرقة تعلو جانبها ركام الصخور التي كانت تغطي الثلج وتبدو كالتلال.



في ذرى جبال الألب وقد انضمر شجر الصنوبر من أثر البرودة.

وعندما عبرنا الثلاجة إلى الجانب الآخر أخذنا نسير في طرق وعرة، ومسالك خطيرة، ولشدة انزلاقها أقيمت على بعضها سور من حديد كنا نتوκأ عليه، ولا تقاد الأرض تستقر تحت أقدامنا لانزلاقها، وبعد الهوة تحتنا بنحو المائتي متر، وكدنا نفقد طريقنا في هذا الجبل المسمى «شابو»، وأخيراً قاربنا مصب الثلاجة، وعنده يتضاءل الجليد في السمك حتى يصبح لساناً ضيقاً في آخره شبكة من النهيرات دافقة الماء، وكان ارتفاع الثلاجة ١٩٠٩ متراً في المكان الذي جزناه، ويزيد علواً كلما أوغلنا فيها حتى نصل القمة البيضاء «مون بلان»، التي بدت وضاءة على مقربة منا، وقد أقاموا مرصدًا ونزلًا صغيراً في أعلىها.

وعلى الجبل أنواع من الزهور الجميلة، وكان الشجر يتضاءل كلما علونا، ويمد جذوره في صدوع الصخر بثبات عجيب ينمو أفقياً، ثم ينثنى رأسياً ويستقيم إلى السماء.



بعض زهور جبال الألب التي تنمو على جوانب الثلوجات.

قمنا مبكرين في اليوم التالي نعتلي ثلاثة «بوسون»، وتعلو سطح البحر بنحو ٢٩٥٥ متراً، أخذنا نصعد في طرق متلوية كالأفعى في انحدار وعر؛ لذلك كنا نحس بتعب شديد، وبعد ساعتين استرخنا في نزل للشاي بجانبه مغارة بد菊花 وسط جليد الثلاثة. دخلناها فإذا بها زرقاء اللون صافية بلورية، كثيرة السراديب، وقد أشعل في وسطها مصابحان، والماء يتقاطر من جميع نواحيها، ويسيل في مغار ضيقة أسفل جدرانها.

استأنفنا الصعود مرة ثانية زهاء ساعتين، وحللنا نزلاً تناولنا فيه الغداء، وكنا نرى الثلاثة إلى يسارنا تنحدر إلى أعماق سحرية، وكلما طوحنا بنظرنا جهة المنبع تضخت حتى امتنجت ببساط الثلج الموصل لون بلان في مشهد رهيب، ويعطي بها من الجانبين الشجر والزهر والنبت الوفير، ولا يفصل بين الثلج والأرض إلا كتل الركام وحطام الصخر

الذي فته جلمود الجليد، وسطح الجليد مجعد مخيف، والماء يسيل من بين الشقوق في خرير رهيب، لونه أبيض تشوبيه زرقة مستملحة تقر لها العين إلا قرب الجوانب وعند نهاية الثلاجة حيث يكسوها هشيم الصخر.



نخرج من مغارة في قلب ثلاجة «بوسون» بشامونيكس.

وفي الحق كان المنظر رهيباً يملأ القلب روعة وجلاً، ويدركه بقدرة الخلاق العظيم فيخُر خاشعاً يستزيد رسوحاً في الإيمان، وثقة في الله جل وعز.
أخذنا دليلاً عبر الثلاجة، ويا لهول ما لاقينا! بدأنا نخطو على الثلج في تثاقل بين شقوق تفترغ أفواهها إلى مد البصر، ونوافئ كأنها التلال، وبرك ونقائع راكدة، وقنوات ومساقط ليyah جارية في دوي مخيف، ولم نأت على كتلتها إلا بعد ساعة، وعندما انطلقت ألسنتنا شكرًا لله الذي أنجانا من خطر كبير. أما جليد الثلاجة فناصع البياض في ظاهره تعطيه طبقة رقيقة من الثلج الهش، الذي إذا ما انصرف بالحرارة ثم عاد فتصلب تجمد في بلورات كالزجاج لا تثبت أن تتحدد فتصير مصمتة.

وهي تسير في مهل بحيث لا يمكن رؤيتها متحركة، فالمغاربة السالفة مثلًا قد انتقلت مائة وخمسين متراً فقط في سنة كاملة، وكنا نرى القوم يكسرن كتلًا من الجليد ثم يضعونها في مجرى ضيق أعدوه من الخشب، فتنزلق هاوية إلى أسفل الجبل، وهناك تستخدم في تبريد اللحوم والمرطبات، وكنا نلقي صبية الرعاة يسوقون أبقارهم السمان وقد علقت في رقبتها الأجراس الكبيرة لتدل علينا إن هي ضلت سواء السبيل.



شارع «مون بلان» في جنيف وترى ثلوج «مون بلان» بيضاء في الصدر.

ويمكن الوصول إلى الثلاجة بوساطة ترام هوائي معلق في أسلاك يسير كأنه الطيارة، غير أنَّا ألفيناه في حالة عطب أصحابه من انهيار ثلجي اكتسح بعض قوائمه. وبالمدينة خانق «ديوزاس» الجدير بالزيارة يجري به الماء في مساقط رائعة، والجبال من حولها في علوٌ شاهق يزيد على المائة متر في استقامرة رأسية، وقد أعد القوم أفارييز خشبية تسير صعدًا في جوانبه، وتعبره القنطرة في غير موضع واحد، وكانت صخور الجوانب تبدو هشة منحلة، وجلها من رقائق الإردواز، وقد انهارت كتل عظيمة منها إلى أغوار اليم، وبالإيجاز فشامونيكس مزار صحي يتمنى طلاب الهدوء ورواد الطبيعة الساحرة أن يتذذوه لهم مقاماً هائلاً.

(٩) سويسرا

قمنا إلى جنيف تلك التي تهول الزائر نظافتها في طرقها وأبنيتها وساكنتها إلى الإفراط في تنميقتها، حتى في أعمدة المصابيح التي زينت بالورد والثريات الناصعة البياض، ويفوق ذلك جمالاً البحيرة التي نُسّقت أرصفتها على أنماط مختلفة، وقد ركينا متنها في باخرة، وجُبنا أطرافها، وكنا نستبين شواطئها على بُعد كالسحاب، ورسونا على مدن عدة من بينها لوزان التي تحاكي جنيف في نظافتها وهدوئها، وإن كانت دونها جاذبية، وخير ما زرنا بها قصر عصبة الأمم يطل على البحيرة في جلال أقيم عقب معاهدة فرساي.

ولقد ارتضى غالب الدول بإنشائه هناك اعترافاً منهم بما لجنيف من فضل السبق في ابتكار كثير من المنشآت الخيرية، ومناصرة الإنسانية عملاً وقولاً. ومن أجمل المدن التي رسونا بها «أفيان»، وبها كازينو شبيه أخيه في مونت كارلو، ويطل على البحيرة، وتكثر بها الينابيع التي يؤمها المرضى للاستشفاء، وهي داخلة في الحدود الفرنسية؛ إذ إن جزءاً كبيراً من الساحل الجنوبي لبحيرة جنيف داخل في حدود فرنسا.

وإلى الجنوب الشرقي من جنيف تبدو قمة المون بلان ضئيلة بين الجبال الأخرى لبعدها، ويكسوها الثلج الأبيض الوضاء، وأينما طوحت ببصرك بدت المنحدرات تكسوها الحضرة، وتسلل على جوانبها الغدران، وتتوهج ذراها عمامئ الثلج في جمال رائع، ويخرج نهر الرون من البحيرة في اتساع كبير، وماء أزرق صافٍ، وتيار سريع تعبره القناطر المنسقة. ولقد أحاط القوم مياه النهر بسدود توقف تياره، وتحوله إلى أنابيب ضخمة تؤدي به إلى محركات وألات لتوليد الكهرباء.

وبيلغ القوم في العناية بنظافة الطرق حتى إن البوليس لا يسمح لأحد بـإلقاء شيء في الطريق، حدث مرة أن ألقى أحد المارة بقشر كمثرى كان يأكلها، فأدركه الشرطي وأخرج من جيبه كراسة المخالفات، وألزمته بدفع الغرامه، ثم سلمه الإيصال، فتناوله الرجل غاضباً ثم مزقه ورمى به إلى الأرض، فاستوقفه ثانية ليدفع الغرامه للمرة الثانية، ثم ألمه أن يجمع ما ألقاه في الطريق كله، واقتاده إلى سلة المهملات. وتلك السلال تعلق بكثرة في أعمدة المصابيح.

أما أهل سويسرا فخليط مشعّب من الأجناس والعادات والأخلاق واللغات، فهم يتكلمون أربع لغات أو خمساً أظهرها الألمانية في الشمال، والفرنسية في الغرب، والطليانية في الجنوب، وهم متناقضون في خاللهم قد جمعوا بين الكرم والبخل، ومظاهر الرخاء والبؤس، وهم معروفون بالطمع الشديد الذي أضحي مضرب الأمثال؛ لذلك فهم نزاعون



قصر عصبة الأمم في لوزان.

إلى استغلال أضيافهم ما استطاعوا، كما حدث لنا مع بعض الحمّالين بالمحطة الذين أصرّوا أن يُؤجّروا فرنكين على كل حقيبة حملوها إلى اللوكاندة المواجهة للمحطة. وأهل الريف يشتغلون بجدٍ إبان الصيف ليدخلوا للشتاء، ويقيمون مساكنهم الخشبية بأنفسهم، وينسجون أرديةتهم الصوفية بأيديهم، وجل غذائهم بسيط، ومن الألبان، بفضل كثرة المراعي التي تملأ المنحدرات؛ ولذلك ليس بعجيب أن تكثر صنوف



قطنطرة «مون بلان» عند منفذ الرون من بحيرة جنيف.

الجبن الممتاز، مثل ذلك جبن «جريوبيير»، وهي قرية من قرى سويسرا، وبقدر ما ترى الناس في الريف على سذاجة في العيش إذا بهم في المدن قد بلغوا شاؤاً في التأنق والتلكف، وأتقنوا إدارة الأنزال، وتلك مهنة لا يباريهم فيها غيرهم من سائر الشعوب. ولعل في جمال مناظر بلادهم خيرٌ للسائحين، ومن هؤلاء يستمدون شطرًا كبيرًا من أرزاقهم. وأهل سويسرا ديمقراطيون إلى حد كبير، فالبلاد جمهورية مُؤلفة من عدة ولايات متحدة، وكل ولاية تضم عدداً من الجماعات Communes، والجماعة نفر قليل من الناس أشبه بشركة مساهمة لها رأس مالها وامتيازاتها، وكل فرد منها مساهم في الغابات والأراضي المجاورة، وله قسطه في الإيراد يتقاده لا نقداً، بل نوعاً، ويؤخذ رأيه في إدارتها، وكل ولاية قوانينها الخاصة التي تسنُّ بالتصويت العام في مجتمعاتهم النيابية التي يعقدونها في الهواء الطلق مرة كل سنة، والتي تعد أعجب النظم الديمقراطية؛ إذ يُدعى الشعب في العراء، ويخاطبهم الرئيس قائلاً: «أيها الإخوان ذوى السيادة». فيقدم كلُّ مقتره ليناقشوه فيما لا يزيد على نصف ساعة، ثم يمر الجموع في صفوف زوجية، ويعطي كلُّ صوته ثم ينصرف إلى عمله.



إحدى ولايات سويسرا حيث ترى القوم في اجتماع برلناني في العراء.

وليس لطبقة الأشراف أثر مطلقاً، فهي غير موجودة، ورئيس الجمهورية لا يزيد راتبه على أربعين ألفاً سنوياً، وليس للبلاد جيش، وإن كان الدستور ينص على أن كل فرد من الأمة عضو في الجيش. والحرس السويسري معروف بالأمانة والإخلاص، يؤيد ذلك أنهم فروا عن آخرهم دفاعاً عن لويس السادس عشر، وأن حرس البابا لا يزالون من بينهم.

ويستürüي النظر البوليسي الذي يتخذ من كلاب سان برنار، تلك التي يمرنها رهبان أديرة تلك الجبال على اقتداء الأثر، وعمل الإسعاف لمن أصابه زمهرير الجليد، وترتها تحمل على ظهورها أو في رقبتها بعض العقاقير للإسعاف، ويهديها شمها الحاد إلى المكان الذي أغارت الثلوج فيه على عابري السبيل، أو إلى حيث يضل هؤلاء، فإن أمكنها الإسعاف قامت به وإلا عادت سراغاً ل تستنجد ببعض الرهبان.



كلاب سان برنارد تقوم بعمل البوليس في الضبط والإسعاف.

(١٠) باريس

عدنا من سويسرا إلى ليون ثانية، ثم قمنا في قطار الرابيد ظهراً صوب باريس، وسرنا في مروج منبسطة تُكسى بالزارع المتقنة تزيينها الأشجار إلى أن دخلنا باريس الثامنة مساءً، ومن العجيب أن المدينة لم تسترخ من أنظارنا شيئاً لأول وهلة، وكدنا نؤكد أن عظمة باريس التي طلما سمعنا عنها لم تكن إلا خيالاً بعيداً عن الحقيقة، فلم نر إلا كثيف المباني ذات اللون الأسمر الكدر الذي لا يسرّ العين في شيء، ولقد تعربنا طويلاً حتى حصلنا على نُزل نأوي فيه ليلتنا.

وفي الصباح قصدنا متحف لksamبرج، وبه مجموعة قيمة من صور زيتية وتماثيل يتقدمه متنزه فسيح به نافورة رائعة، وبعد ذلك ولينا شطر.



قصر اللوفر وأمامه الكنكوردو ميدان الثورة الفرنسية.

(١٠-١) ميدان الكنكوردو

فبانت عظمة باريس الحقة، ففي أحد طرفيه قصر اللوفر الذي ينفتح أمامه متنزه أبدع تنسيقه بالزهور والتماثيل والنافورات، ينتهي بميدان عظيم الاتساع تقوم به مسلة مصرية شاهقة قد نقلت من عين شمس. وفي هذا الميدان كان يجتمع رجال الثورة الفرنسية، وهنا سفكوا دماء الأشراط بالآلة المقصلة، ثم يمتد منه طريق الشنلزيه، الذي يبهر النظر بنظافته وحسن تنسيقه، وقد أحبيط بالشجر المزدوج من الجانبين، يؤدي بنا إلى قوس نصر فاخر أقيم لتخليد انتصارات نابليون، وعليه ت نقش بعض وقائعه الحربية، وتحته اليوم قبر الجندي المجهول، وعنه تشعب رئيسي لاثني عشر طريقاً كبيراً سميت بأسماء كبار القواد والواقع التي انتصروا فيها.

ولقد عبره الألمان منتصرين في حرب السبعين، وأمامه طريق غابة بولونيا الذي يؤدي بعد طول السير إلى الغابة نفسها، وهي متسع من الأرض تكسوه أشجار البلوط والصنوبر، ويبعد كأنه غابة كثيفة تتوسطها بحيرات عديدة تحصر بينها جزائر عدة، وتجوب خلالها زوارق الرياضة، وعليها تقام المقاهي الفاخرة. وهي من أجمل متنزهات باريس.

(٢-١٠) اللوفر

كان من قصور الملوك الأقدمين، ومن بين من سكنه شارل التاسع الذي كان يتصيد أفراد الهيوجنوت الهاريين بالنار من إحدى نوافذه، وبه اليوم متحف عظيم من أكبر متحاف الدنيا جمع فأوعى، به مجموعة من الصور الزيتية لكتاب مصوري العالم، ومن بين معروضاته صورة الجيوكوندا من عمل لوناردو دافنشي. وهي صغيرة لا تزيد على نصف متر في ثلاثة أرباع المتر، وتمثل سيدة تعلوها ابتسامة يحار اللب في تفسير مغزاها، سلبها نابليون من إيطاليا.

وحدث أخيراً أن نُقاشاً إيطالياً كان يعمل داخل المتحف سرقها، فعينت الحكومة الفرنسية مليوناً من الفرنكـات لمن يدل عليها، ولما انكشف سر الرجل في إيطاليا أودع السجن، وردت الصورة لفرنسا، وتـرى آثار القطع واضحة في جوانبها. وهناك صورة لـنابليـون يلبـس التـاج لـجـوزـفـينـ، وـبـيارـكـهـ الـبـابـاـ، وـهـيـ تـمـلـأـ الـحـائـطـ بـأـكـمـلـهـ فـيـ روـعـةـ وـإـتقـانـ، وـبـالـمـتحـفـ جـانـبـ لـلـسـفـنـ الـبـحـرـيـةـ مـذـ نـشـأـتـهـ إـلـىـ الـيـوـمـ، وـبـهـ نـماـذـجـ لـجـمـيعـ السـفـنـ شـرـاعـيـةـ وـبـخـارـيـةـ.

وعجيب أن كانت سفن القرن السادس عشر الشراعية في هذا الحجم المروع، وتعلو في ستة طوابق، وهي مزودة بالمدافع الكبيرة، وبالتحف قسم مصرى قديم، وأخر لخلفات آشور ذات العمد تعلوها رعوس الشيران، وتقيمها السباع البارزة، وتزيينها الكتابة المسماوية، إلى ذلك بعض آثار كريت وقبرص والإغريق.

وأعجبتني هناك خريطة لفرنسا أنهاها من فضة، وأسماء مدنهـا كـتـبـتـ منـ ذـهـبـ، وـمـواـضـعـهاـ صـيـغـتـ منـ جـواـهرـ ثـمـيـنـةـ. أما القصر نفسه فمن معجزات فن العمارة والنـفـشـ، وبـهـ حـجـرـاتـ نـابـلـيـونـ وـكـثـيرـ منـ آـثـاثـ لـوـيـسـ الـرـابـعـ عـشـرـ وـغـيـرـهـ.

وزرنا ميدان الباستيل وليس به من آثار قاض تدل على ذاك الرمز العاتي رمز الاستعبـادـ الذي دـكـهـ الثـوـارـ سـنـةـ ١٧٨٩ـ، اللـهـمـ إـلـاـ عـامـودـ فـخـ منـ البرـونـزـ يتـوجـهـ تمـثالـ الحرـيةـ وـقـدـ

أمسك بشعلة النجاح في إحدى يديه، وبسلسل الاستعباد المهمشة في اليد الأخرى، وعليه خطت بحروف من ذهب أسماء ٦١٥ من الأبناء البررة الذين ساعدوا على هدمه.

(٣-١٠) فرساي



بهو المرايا الذي أمضيت به معاهدة فرساي.

ضاحية من باريس تبعد عنها بنصف ساعة في «المترو»، بها قصر فرساي ذاتع الصيت، أقبلنا عليه في بهو طويل تحفه الأشجار المزدوجة، فبدا آية في فن العمارة والزخرف الذي كاد يفوق قصر الفاتكان، وقد عرضت بحوائطه صور زيتية لجميع الواقع الهامة في تاريخ فرنسا نخص منها: معاهدة باريس، تقهقر نابليون من روسيا، فتح أنغرس، هزيمة الأمير عبد القادر، كلها في لوحات دُرّع الواحدة عشرون متراً. وهناك بهو كامل لذابليون وواقعه في نقش بديع، وفي مختلف الحجرات يعرض الآثار القديم؛ كسرير لويس الرابع عشر بفراشه ومكتبه، وبعض العدد التي كان يتسلل

بها لويس الخامس عشر، وكان كلفاً بأشغال النجارة، والمنضدة التي أمضيت عليها معاهدة الصلح سنة 1919، في صالة المرايا التي عقد بها مؤتمر فرساي.

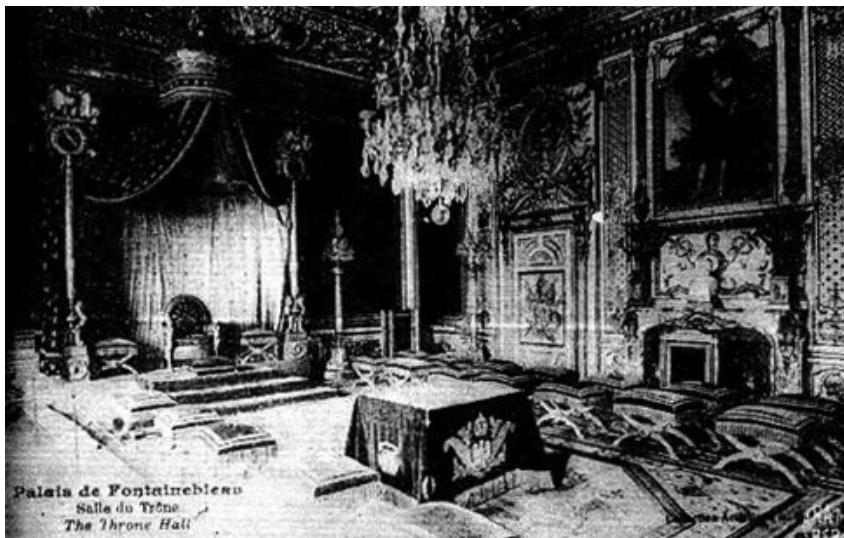


النافورة الفاخرة في حديقة قصر فرساي «باريس».

وفي الطابق الأسفل أقيمت غالباً التماثيل تذكاراً لغالب الملوك ومشاهير السياسيين، والقصر يطل على منتزه يعدأ جمل حدائق الدنيا نسقت فيه أحواض الزهور على أنماط جذابة، ويواجه القصر طريق فسيح يؤدي إلى سلم فخم تنزل منه إلى نافورة شاسعة زينت بالسلاحف والأفاعي يتفجر من أنفواهها الماء في تقوسات بد菊花، ومن دونها سلم آخر يؤدي إلى طريق ممتد إلى نافورة من الخيول أمامها نهر من الماء الساكن، وغابات الشجر تمتد إلى أفق السماء، وتتخللها بين آونة وأخرى النافورات والمقاصير. كل ذلك يذكر المرء بعظمة لويس الرابع عشر منشئ هذا القصر؛ فلقد كان حقاً خليقاً بتلك الأبهة وذاك المجد والفخار الذي كان يزهو به.

وفي هذا القصر تُوج الإمبراطور غليوم الأول الألماني سنة ١٨٧١ منتصراً على فرنسا. ومن عجائب الأقدار أن فرنسا ثارت لنفسها بعد خمسين سنة، فأمللت شروط الصلح في نفس المكان، وداخل ردهة المرايا، وعلى نفس المنضدة سنة ١٩١٩.

(٤-١٠) قصر فنتانبلو



غرفة العرش لنابليون، قصر فنتانبلو.

ومعناه نبع الماء الجميل Fontaine de belle ean في ضاحية تبعد عن باريس بساعة وربع في القطار، بناء مهندسون إيطاليون عهد فرنسوا الأول، واتخذه نابليون مسكنًا، وفيه حجز البابا بيوس السابع سجينًا، وأرغم أن يمضي عقد الاعتراف بإغلاقه المواري في وجه إنجلترا بعد أن رفض البابا ذلك. وهو فخم قد يفوق فرساي في أبهة النقوش والزخرف من داخله، فيه من الآثار الفاخر شيء كثير؛ كحجرة النوم لنابليون ومكتبه،



غرفة النوم لماري أنتوان زوج لويس السادس عشر، قصر فنتابلو.

وصالة المشورة، وبهـو العرش، وحـرفة ماري أـنتـوانـيت وسريرـها، وروـضـة هـنـريـ الثـانـيـ،
أـفـخـرـ الـحـجـراتـ فـيـ الـعـالـمـ أـجـمـعـ.

ومن المعروضات القيمة: المنضدة التي كتب عليها نابليون صك اعتزاله للملك. وفي
هـذاـ القـصـرـ وـدـعـ حـاشـيـتـهـ وـحرـاسـهـ وـهوـ خـارـجـ إـلـىـ منـفـاهـ فـيـ جـزـيـرـةـ أـلـبـاـ، وـكـفـيـ الـقـصـرـ فـخـراـ
أنـ قالـ عـنـهـ بـوـنـابـارتـ فـيـ مـذـكـرـاتـ مـنـفـاهـ:ـ إـنـهـ لـقـصـرـ خـلـيقـ بـسـكـنـىـ الـلـوـكـ، وـقـصـرـ لـاـ تـبـلـيـ
جـدـّـتـهـ السـنـونـ.ـ»ـ.

(٥-١٠) متحف جريفان

أقيمت به مجموعة من التماثيل شكلت من الشمع الأبيض، يمثل كثيراً من مشاهير الرجال، مثل: كلمنصو، مصطفى كمال، نابليون، بعض الواقع كهجوم الثوار على لويس السادس عشر، القبض على الملك والملكة، صلب المسيح، وبه حجر تسمى «كاتا كومبو» بها تمثال لساجين هزال الأجسام ذوي وجوه شاحبة ناحلة مخيفة، وكذلك بعض الموتى وما إلى ذلك من المشاهد المرعبة.

(٦-١٠) برج إيفل

وأقيم من الحديد الخالص في شباك متقطعة تدق وتتقارب كلما صعدنا، ولقد اعتليناه بمصعد كهربائي إلى الطابق الثالث، وكان علوه ثلاثة متر، وكانت باريس على عظمتها تبدو ضئيلة كأنها خريطة يد صغيرة يتبعن المرء عليها جميع مواقعها، وفي أعلى ردهة فسيحة بها نزل للطعام، ويعلوها طابق رابع أعد للإشارات اللاسلكية، وعلى اتصال بوزارة الخارجية. والبرج ملك لشركة فرنسية تتعاطى جعلاً قدره ستة فرنكات على كل زائر، والزحام هناك بالغ نهايته، وقد استغرقت الزيارة ساعة ونصفاً.

(٧-١٠) البانثيون

كنيسة تقدمها الأعمدة على النظام الإغريقي، وتعلوها قبة فخمة تظل مدافن العظاماء اعترافاً بفضلهم. ومن بين من دفنوا هناك ثم انتزعت جثثهم ثانية ميرابو، وألقيت جثته للراغبين، ومارات وألقيت جثته للكلاب، وكلاهما من رجال الثورة الفرنسية، كذلك جثة فكتور هوغو التي اختفت معالمها بعد دفنتها، ولا يعلماليوم مستقرها.

(٨-١٠) نوتردام دي باري

أكبر كنائس باريس على النظام القوطي، يتقدمها برجان بولغ في حفرهما وزخرفتهما، وفي داخلها قبة مزركشة، أبدع ما يسترعى النظر نوافذها التي يكسوها الزجاج الملون تتعكس منه الأضواء القاتمة فتكسب المكان رهبة. أما باقي الكنيسة فعادي في نظرنا خصوصاً إذا قورن بكنائس روما.

(٩-١٠) قصر الأنفاليد

بناء لويس الرابع عشر، وهو الآن معسكر دفنت فيه رفات نابليون تحت قبة فخمة، وذلك بناء على وصيته التي قال فيها: إنني أحب أن تدفن رفاتي على ضفاف السين بين أبناء شعبي الذين أتقانى في حبهم. وإن المرء لمجرد وقوع نظره على القبر لتعروه دهشة في ذهول وروعه في جلال حين يذكر أعمال ذاك البطل وأطماعه تلك التي يضمها ذاك الحيز الضيق. فسبحان مالك الملك يؤتى الملك من يشاء، وينزع الملك ممن يشاء، وهو على كل شيء قادر.



مدفن نابليون تحوطه أعلام النصر.

والقبر من الجرانيت الصقيل المُجَزَّع يطل عليه الزوار من سياج عالٍ كي يطأطئ أعظم الزائرين رأسه إجلالاً للإمبراطور، وإكباراً ل شأنه، ولو كره ذلك. وترى أفواج الناس وكأنما على رءوسهم الطير من روعة الموقف. أذكر أن الأخ عبد الرحمن نسي ولبس قبعته،

وما كاد يضعها فوق رأسه حتى دوى صوت الحارس على شيخوخته وكأنه الرعد من أقصى المكان قائلاً: أخلع قبعتك إجلالاً يا سيدي.

وتواجه الضريح مقصورة فاخرة النقش يتوسطها المسيح وهو مصلوب، وقد حللت الجدران بالصور التي تمثل وقائعه الحربية، وأحيط به أخوه وعظماء قواه في نوايس من الرخام والجرانيت، وترفرف على الجميع الأعلام التي انتزعاها في الحروب التي انتصروا فيها، ومن بينها أربعة وخمسون غنمواها في واقعة أوسترلitz. ولقب نابليون بباب بمصريين من الحديد نحتت عليه الزخارف وبعض الوقائع، بعضها باز والبعض غائر، صيغ كله من حديد المدفع التي غنمها نابليون في واقعة أوسترلitz. وقد عُني المهندسون الذين أقاموا الضريح بتصميمه بحيث تلقي شمس الأصلب بأشعتها الذهبية على رأسه مباشرة.

وفي القصر متحف صغير للعدد الحربية القديمة، والجنود يلبسون الدروع ويتمطون جيادهم يتقدمهم ضابطهم، بحيث يخيل للمرء أنه وسط جيش من القرون الوسطى. وقد أحيط فناء القصر بالمدافع الضخمة منذ عهد نابليون، وكذلك عربة السكة الحديدية التي أمضى فيها الجنرال فوش الصلح عقب الحرب الكبرى سنة ١٩١٨، وتتقدم القصر من جانبيه حدائق منسقة على أكمل مثال.

ذاك مثل مما يشاهده السائح في باريس، سيدة العالم في التأنق والتبرج والزينة، ترى النساء وقد خلعن العذار وأسرفن في المجون، وتكللين في طلاء الوجوه بشكل مبتدز، والفتيان ولا عمل لهم سوى تعهدهم هندامهم بالمحسنات، ووجوههم وشعورهم وأظافرهم ب مختلف وسائل التجميل، وكأنما خلقوا للمغازلة. والحق أن نظام الحياة في باريس أبعد ما يدل على الفرنسي الصميم؛ لأنها مزيج من متropic العالم أجمع، حتى قيل: إن الأجانب هناك باريسيون أكثر من الفرنسيين أنفسهم؛ ذاك لأن ثلاثة أرباع الشعب الفرنسي من طبقة المزارعين الذين لا يؤمنون المدن بكثرة.

ولقد كان لامتلاكهم للأراضي وتوりثهم إياها لبنيهم واعتمادهم عليها أثر في توثيق عرى الروابط العائلية واستقرارها في القرى، وقلل من الفوارق الكبيرة في الثروة؛ لذلك يقل الفقراء المعوزون كما يندر الممоловون المفرطون في الغنى. ولقد أثرت تلك الروابط العائلية في مشاعرهم، فكان الفرنسي معروفاً بشدة حنوه وعطفه ودقائق إحساسه، على أنه حط من قيمة المرأة قليلاً حتى إن الزواج في الريف كثيراً ما يتم باتفاق الآباء أنفسهم دون أخذ رأي الزوجين.

والفرنسي سريع الغضب، حساس لكرامته إلى حد المغالاة: حدث مرة أننا أردنا النزهة في سيارة، فأقبل رفيق لنا مصري على السائق يناديه بنغمة الأمر، وكان السائق متكتئاً على سيارته يقرأ جريدة الصباح، فنظر إليه السائق شذراً وأهمله، وما كدنا نصله ونفتح باب السيارة حتى انفجر الرجل غاضباً ورفض طلبنا في إباء.

(١١) لندن

غادرنا باريس قاصدين لندن عاصمة بلاد الإنجليز، وهي مشتقة من الكلمة كلتية معناها كثيب المناق *dyn* أو *lake dune*، وعندما وصلنا ثغر ديبب ركبنا باخرة كبيرة عبر المانش — وهو بحر عظيم الاتساع سواحله صخرية مشرفة في بياض تشوبيه سمرة وتعلوه الخضراء — وبعد ثلاث ساعات رسونا على نيويورك، من ثغور إنجلترا، ومنها أخذنا القطار إلى لندن في ساعتين.

أما المناظر فعادية: مروج فسيحة مغضنة السطح تكسوها الخضراء، وتتخللها الأشجار. ولندن بدت في نظرنا أقل شأنًا مما سمعناه عنها في حركتها ومبانيها وتنسيقها ونظافتها. خرجنا إلى: هيد بارك وطفنا به، فإذا به متزه عادي ليس فيه من الجمال شيء، غير أنه فسيح جدًا، ثم قصدنا شارع «بکاديلي» قلب المدينة النابض، وهو أيضًا بدا عاديًّا.

وفي جولتنا بالمدينة مررنا بشارع «فليت» مقر الجرائد الكبرى، ثم شارع «دننج»، وبه دار الحكومة، ولا بأس بفخامتها، ثم اخترقنا شارع الدار البيضاء وميدان البرلان، وبه دار النيابة ببرجها الشاهقين تشرف على التاميز في عظمة وجلال، بجانبها كنيسة وستمنستر يواجهها تمثال كرمول، وإلى الجانب الآخر الشارع الملكي يؤدي إلى قصر بكنجهام، وهو صغير أمامه تمثال لذكرى فكتوريا، وعلى الجانبين متزه سانت جيمز الجميل. ومن ميادين المدينة الممتازة «ترفالجار» يتوسطه تمثال نلسون الذي أقيم تذكاريًّا لانتصاره وموته سنة ١٨٠٥.



السيدة جين غراري والجلاد قد أمسك بالمقصلة لفصل رأسها.

(١١-١) برج لندن

يرجع عهده إلى يوليوس قيصر، والراجح أنه من عهد وليم الفاتح ١٠٧٨، وقد أضيفت إليه أجزاء فيما بعد، وهو مقام على التاميز، ومن حوله خندق متسع كأنه نهر صغير كان يملأ ماء من فتحة تتصل بالنهر عليها باب حديدي وسلم، وكان المسجونون والمحكوم عليهم بالإعدام يدخلون منه، وهم الخونة إذ ذاك؛ ولذلك كتب عليه «باب الخونة»، ومن بين من ماتوا فيه هنري السادس، وإدوارد الخامس، والسيدة جين غراري التي تولت العرش ثلاثة أيام فقط، ثم استعادته مارية تيودور الوارثة الشرعية، وقضت بإعدامها.



التيجان والجواهر الإنجليزية التي تلبس في الحفلات «في أعلاها تاج فكتوريا، وبه أخمر ياقوطة في العالم، وفي الصولجان الأوسط أكبر ماسة في الدنيا ٥١٦,٥ قيراطاً».

وتعرض هناك بعض أدوات التعذيب والقتل التي تدل على مبلغ استبداد ملوك إنجلترا في ذاك العصر، وأخمر ما بها حجرة عرضت بها التيجان والصلجانات الملكية، وهي مجموعة قيمة من الذهب المحلي بالجواهر الكبيرة، مثل: اليواقيت، وقطع الماس في أحجام تبهر النظر، وهناك تعرض أكبر قطعة للماضي في الدنيا، وهي في شكلها الغفل ولم تقد بعد. وترى في مواجهة النهر مجموعة من المدافع القديمة التي غنمها الإنجليز من الهند والروس وسلطان عدن، وعلى بعضها كتابة عربية في خط جميل.

وبجانب البرج القنطرة المعلقة، أقدم قناطر لندن من الحديد الضخم، وفي وسطها برجان شاهقان بينهما قنطرة سماوية، وسكان هذا الحي على جفاء في الطياع، وخشونة في المعاملة، وهم كثيرو الجلبة قذرون، ولا يتورع الواحد منهم أن يتهمك على المارة، وبخاصة الأجانب منهم، بألفاظ وقحة، وهم يشيرون إليه في غير حياء كما حدث لنا.

(٢-١١) كنيسة سنت بول

أكبر كنائس لندن، وأعلاها ذروة، فهي تعد رابعة كنائس الدنيا، وهي مقامة في شكل صليب تتوسطه القبة الشاهقة العلو التي يراها البعض من أفخر قباب الدنيا، وهي في هندسة قوطية، لكنها — في نظري — بسيطة ليس بها من الزخارف القيمة إلا القليل، وبالمقارنة بكنائس روما لا تعد شيئاً مذكوراً.

(٣-١١) دير وستمنستر



البرلان يشرف على التاميز في لندن.

كنيسة فسيحة الأرجاء عالية الأبراج في هندسة قوطية كثيرة الفتحات المدببة والنوافذ، يكسوها الزجاج الملون في قطع صغيرة تبعث بظلامها الداخلي شيئاً من الرهبة خصوصاً،

وتقوم في أركانها مدافن العظام؛ ففي مقصورة ترى مشاهير الكتاب والشعراء أمثال: شكسبير، سكوت، تنسون، ودكنز، وفي جانب آخر رجال الدين والسياسة شخص منهم بلمرستون، ومن الملوك إدوارد والإيسابات وأن وكرمول، ذاك الذي دفنت جثته هناك سنة ١٦٥٨، لكن في سنة ١٨٦١ انتزع جثته وألقي بها في حفرة في «تيربن»، وهو المكان الذي ظل إلى القرن الثامن عشر معداً لتنفيذ حكم الإعدام، وقد علقت رأسه فوق ذروة في وستمنستر، وظلت هكذا ثلاثة وثلاثين عاماً حتى هشمتها عاصفة عاتية هبت هناك.

وفي مقدمة الكنيسة قبر الجندي المجهول، وهناك حجرة صغيرة يحالها الناس من الكنيسة، وهي في الحقيقة دار البرلان، الذي كان ينعقد في عهد كرمول، وأغرب ما فيها صغرها الذي لا يتسع إلا لنفر قليل. وهي منقوشة نقشاً فنياً بدليعاً وبجانبها:

(٤-١١) دار البرلان

الفاخرة؛ ويشمل غرفة مجلس الأعيان «اللوردات» يؤدي إليها بهو وردهة، أقيمت على جوانبها تماثيل الملوك والملكات، وصورت على جدرانها أعظم الحوادث التاريخية من بينها موت نلسون وواقعة ووترلو، وكذلك بعض حوادث البرلان سالفاً، وفي سقفها من الزخارف بالذهب والفضة ما يحار فيه اللب، وإذا ما جزته دخلت الدار؛ فإذا هي آية في الإبداع من نقوش جذابة إلى زخارف ثمينة إلى مقاعد وثيرة تكسوها الجلود الحمراء البراقة.

وفي زواياه تماثيل لمن أرغموا الملك جون على إمضاء العهد الأعظم «ماجنا كارتا» دعامة الدستور الإنجليزي، وهم ثمانية وعشرون باروناً، والمكان حقاً يمثل عظمة الدولة البريطانية، ولعله أخر ما يراه الإنسان في لندن كلها. أما مجلس النواب فجميل في بساطة، لم يُبالغ في نقشه، ولم يُسرف القوم في تنسيقه، تُعطى مقاعده بالجلود الخضراء، وعدها ٤٧٦ مع أن مجموع الأعضاء ٦١٥، ولا يسمح لأحد بزيارةه وقت انعقاده إلا بتذاكر خاصة، عدا يوم السبت، وهو يوم عطلة للبرلان حين يسمح للجميع أن يدخلوه.

(٥-١١) حي لفربول

وهو الحي الوطني الذي تقطنه الطبقات الفقيرة، ضيق الطرقات قفرها بحيث يُحاكي أزقة الحسينية عندنا، وترى الباعة قد نشروا سلعهم على مناضد خشبية وهم ينادون عليها في غير نظام؛ إذ ترى بائع السمك القدر إلى جانب بائع الطلوى والفاكهة والخيار «المخلل» يعف عليها الذباب في شكل تعافه الأعين، والطرق قد لوثت بما ألقى فيها من أوضار، وبما يسيل فيها من مياه كدرة ودماء اللحوم القدرة.



بعض فقراء الإنجليز في أسمالهم الرثة بقرى الشواطئ.

والعامة هناك كثيرو الجلة رثو الهيئة، والصبية الهمل كأبناء الشحاذين عندنا، وكم كنت أود أن آخذ بعض الصور الفوتوغرافية، لكنني دهشت لما خبرني بعض الأصدقاء أن القوم لا يسمحون بذلك مطلقاً، وقد حاولها هو مرة فلم يستطع، وانتهى الأمر إلى تحطيم

جولة في ربوع أوروبا

آلـة التصوير، وكان شـجار ثم مـلاكمـة نـجا مـنها بـعـد لـأـيـ. هـذا مـثـل مـن احـترامـهـم لـقومـيـتـهـم جـديـر بـكـل إـكـبـار، وـخـلـيق أـن نـحتـذـيهـ نـحنـ فـي بلـدـنـا.



لندن: أحد الحمالين في حي كفنت جاردن القذر.

ثم مررنا بحي «كفنت جاردن»، وهي السوق العامة للفاكهة والخضر، عظيمة الحركة والضوضاء، خاصة بالحوذية والعمالين الذين يسوقون عربات الحمل بسلاسل الفاكهة في تزاحم شديد، والمكان تعوزه النظافة، وسكانه قدرون للغاية.

(٦-١١) المتحف البريطاني

لعله أكبر متحف الدنيا، به من الآثار مجاميع قيمة لا تحصى جيء بها من جميع الدول حتى أمريكا وجزائر المحيط الهادئ والهندي والمستعمرات كلها، وفي قسم الآثار القديمة جانب مصرى في ست حجرات كبيرة أقيمت في هندسة مصرية قديمة، وبعض أعمدتها وجدرانها من الصخور المصرية القديمة. يلفت النظر من المعروضات المعروفة النظير في مصر: حجر رشيد. وهو أسود كالإردواز سُمكه نصف متر. وهو الذي هدانا إلى فك الطلاسم المصرية لأنّه منقوش بثلاث لغات: الإغريقية والديموطيقية والهرغليفية. عشر عليه أحد ضباط الحملة الفرنسية، ثم تملّكه الإنجليز عقب انتصارهم على الفرنسيين وحملوه إلى لندن، وقد توصلوا إلى فك رموز اليونانية أولاً، فإذا بها شكر كتبه الكهنة إلى بطليموس سنة ١٩٤ ق.م، واستعانوا بذلك على تفهّم الديموطيقي ثم الهرغليفي الذي كان من المعبيات من قبل.

كذلك جعل «جعران» كبير يبلغ المتر طولاً، وهو أسود براق، ومن الأجسام المحنطة نحو الخمسين حفظت حفظاً تاماً في لفائفها من الكتان، ربّطت بالجلد ونقش على القماش بعض صور الموتى، وأهمها جثة مدفونة في قبر صخري ضخم، وقد أطبقت الرجلان إلى البطن، واليدان إلى الوجه، وقلبت على وجهها، كذلك شعر سيدة مستعار يلبس في الرأس في تجاعيد ذهبية تتدلى منها الخصل الدقيقة في شكل يحكي ما يعمله بعض الطبقات الراقية من نسائنا اليوم.

وفي الأقسام غير المصرية معروضات هندية وبرازيلية، وكذلك مخلفات من العصر الحديدي والبرونزي والجري، وحجرة للجواهر، وأثمن ما بها جرة بورتلند Portland Vase من زجاج أسمراً حفرت عليها التماثيل بحجر الماس بدقة فنية مدهشة، وهي الوحيدة من نوعها في العالم، عُرض على صاحبها مليون من الجنيهات ثمناً فرفض بيعها وأهداها للمتحف. وبالإيجاز فالتحف العالمي في معروضاته يتطلب في تفقده شهوراً، ويتساءل المرء: كيف أمكن لهؤلاء الجبابرة الحصول على تلك المجاميع القيمة الوفيرة؟!

(٧-١١) معرض الفن الألهي

وبه صور زيتية قديمة من مختلف مصوري العالم، من بينهم رفائيل وميخائيل أنجلو ورامبرانت وفان ديك. وال القوم قد عنوا بترتيبه حسب العصور والمدارس الفنية المختلفة، ويهش المرء لكتلة الزحام، خصوصاً من السيدات اللاتي ينظرن إلى الصور نظرات عميقة تُشعر بحسن ذوقهن وتقديرهن للفنون، وهن يصحبن أولادهن الصغار، ويشركنهم في تفقد الصور؛ لكي تتربي الملكة الفنية، وتتساعد الحكومة على ذلك بإباحة الدخول مجاناً للجميع، وفي كل المعارض والمتاحف.

ومن معارض الفن الحديث Tate – باسم مؤسسه – يحوي مجموعة قيمة، لكنها دون ما رأينا في روما بكثير؛ إذ القدرة الفنية في التصوير تكاد تقرؤها في كل صورة تراها من صنع يد الإيطاليين. أما بين الإنجليز فهذا نادر؛ لأن صورهم يسودها شيء من الجمود، وافتقارها للحياة، فكان البرود الإنجليزي قد خلف أثره حتى في تصويرهم.

(٨-١١) أدجوير

ضاحية من لندن تعد موطن الطبقات الوسطى، بيوتها صغيرة متواضعة ليست متلاصقة ولا مرتفعة، يحيط بكل حديقتان صغيرتان، ويفصل بين كل مجموعة من المساكن مرج فسيح أخضر، ويسترعى النظر فيها نظافتها وبساطتها بنائهما؛ فهي تقام بالأجر الأحمر، وتُكسى واجهاتها بالزجاج الذي يبالغ القوم في مسحه، تغطيه ستائر من داخله، وترى في مدخل كل صالون الاستقبال وقد نُسق في بساطة، وعلقت على جدرانه الصور الزيتية وباقات الزهور فوق المناضد.

وقد زرنا إحدى العائلات هناك في رفقة زميل لنا كريم، وتصادف أن كان في وقت الغداء وقد مد القوم السماط، وعجبب أنهم جميعاً قابلونا بترحاب، وأجلسونا حولهم وهم يأكلون، ولم يتعرض واحد منهم لدعوتنا ولو «عزومة مراكبية»، فكنا ونحن جلوس نحس بشيء من الخجل، وظننا أنهم سيُقدّمون لنا تحية من القهوة أو ما شاكلها كما نفعل نحن، لكن شيئاً من ذلك لم يحصل مطلقاً، فودعناهم ونحن ذاهلون من ذاك الجمود الذي نعده عندنا ضرباً من التنطع الذي لا يغتر.

(١١-٩) سكان لندن

قوم صحيحو الجسوم بفضل ميلهم للرياضة، نظيفو الهناء، يسرون في نشاط الشباب حتى الشيوخ منهم، لا يضيعون وقتهم الثمين في التلاؤ في الطرقات أو التسкуع على المقاهي، وعجب ألا توجد المقاهي هناك قط، اللهم إلا أماكن تفتح ساعة أو ساعتين في اليوم، ويؤمها العمال لتناول الشاي أو القهوة.

أذكر أننا كنا نَحْنُ كثِيرًا إلى مكان نجلس فيه لتناول بعض المرطبات فلا نجد إليه سبيلاً في جميع الأرجاء، وقد أعينا التعب ونال منا، فهم قد استعوا عندها بالأندية التي لا تكاد تجد فرداً إلا وهو مساهم في واحد منها. والنساء هناك رشيقات يمشين في وقار، ولا يتكلّفن في أرديتهن، ولا يطلبن وجوههن بشيء إلا نادرًا، على عكس ما تفعل الباريسيات، على أن اختلطهن بالشبان كثيراً في المتنزهات، وبشكل فاضح.

ولعل أجي صفات الإنجليز رزانتهم، وقلة الجلبة بينهم، على نقىض الفرنسي: حدث مرة أن إنجليزيًّا كان راكبًا في قطار فرنسي إلى باريس في المقدى الذي يواجهنا، فأقبل فرنسي ولم يجد له مكاناً، وكان في المقدى المجائب للإنجليزي حقيقة، فأشار عليه أن يرفعها ليجلس، فلم يُعْنِ الإنجلزي بأمره واستمر يقرأ كتابه، فما كان من الفرنسي إلا أن هدده بـإلقائها من النافذة، فتمادي الإنجلزي في جموده، فحملها الرجل وألقى بها من النافذة والقطار يسير كالبرق، ثم جلس مكانها فلم يحرك الإنجلزي ساكناً.

وبعد قليل ونحن نتهامس عجباً، جاء صاحب الحقيقة وبحث عنها، فارتبت الفرنسي وأقبل على الإنجلزي يلومه، وأخذ يعتذر لصاحبه ويتكلّف له بالعمل على إحضارها له. فانظر مبلغ تسرع الفرنسي وطيشه، وجمود الإنجلزي ورزانته. وهم يراعون النظام في كل شيء، ولا يتعدون حقهم أبداً، وكذلك لا يسمحون لغيرهم أن يسبقهم إلى حقهم: حدث مرة أن رجلاً أخطأ وتعجل دوره في طريق مزدحم، وكان يحمل ابنته الصغيرة على ذراعه، فلكمه الثاني بيده غاضباً وهو يقول: الزم مكانك خلفي. فتقبلها الرجل في برود وخطاب طفاته متھكماً وهو يقول: يظهر أن صاحبنا هذا رجل مقتول العضلات!

(١٠-١١) متحف التاريخ الطبيعي

مجموعة لا تبارى نباتية وحيوانية وجبيولوجية، ولا يستطيع المرء تفتقدها في أيام، بل في شهور، فمن الحيوان ترى جميع هيكلها العظمية محنطة بأحجامها المختلفة، وفصالها المتعددة، وقسم الحفريات رائع؛ إذ ترى من بقايا الحيوان البائد ما يهولك؛ كهيكل الماموث والماستودون، وغزال أرلندا الكبير ذي القرون المفرطحة في طول مترين، وبقر البحر الذي يبلغ ثمانية أمتار في الطول، والكسول Giant Sloth وطوله تسعة أمتار، ثم نقلته إلى مكانه الحالى في الضواحي.

ورغم غرابة بنائه وعظمته فقد زاد القوم منفعته، فأقاموا به معارض علمية للحيوان المحنط للمخلفات الجبيولوجية. ولعل أجمل ما به قسم الهندسة المعمارية، وبه أقيمت مقاصير كبيرة في هندسة العصور المختلفة، فترى بهاً مصرىً قديماً بعمده وتماثيله ونقوشه الهرغليفية، وإلى جانبه آخر إغريقي صميم، وثالث روماني، ورابع عربي ترى به ردهة السابع من قصر الحمراء، وخامس قوطى، وسادس لهندسة عصر النهضة الإيطالية، بحيث يكفي الطالب الصغير أن يقوم بجولة حولها فيفهم الفوارق الرئيسية في فن العمارة والنقوش. وفي داخل كل تماثيل لأعاظم رجال العصر. هذا إلى النافورات البلورية وأنواع الألعاب التهدئية. وأمام القصر حديقة نسقت أيمًا تنسيق.

هذا شيء عن لندن ذات المباني المتراسة غير الجذابة التي يقام غالباً بها بالأجر الأحمر؛ لأن التربة من الطَّفل، ويندر وجود الحجر، وهي ذات جو عكر من كثرة الدخان الذي تصعده المصانع والمدافئ؛ لذلك ترى الهواء كدراً حتى إنك إذا مسحت أنفك بمنديلك أفيته أسود فاحمًا. وقد كسيت الجدران بطبقة من الفحم سميكه أكسبتها لوناً قاتماً؛ لذلك يغسل الأغنياء واجهة بيوتهم كل حين، وتقوم بذلك شركات خاصة.

هذا إلى الجو الغائم كثير السحب، فهو غير مأمون يباغتك من غير إنذار بالعواصف يتلو بعضها البعض، وقلما يمضي يوم تصفو قبة السماء، وينقطع المطر، على أن هذا لا يعيق الانتقال قط؛ لسهولة سبل الاتصال وتنوعها؛ حيث تشق الطرق الحديدية الأرض تحت قدميك في ثلاثة طوابق، وفوق السطح ترى السيارات والأتوبيس الأحمر ذا الطابقين الذي قد تقرأ في أرقامه المسلسلة عدد خمسماة.

أما الترام فقد قصر على الضواحي فقط، وتغص الطرق بالمارة خصوصاً بين السابعة والتاسعة صباحاً، والرابعة والسادسة مساءً حين لا يكاد يشق المرء طريقه وسط الجماهير. ولا عجب فسكان المدينة يقربون من نصف سكان القطر المصري، وأنت ترى البوليس

المهيب يُسِّير الحركة بيديه، ويشرف على كل شيء في لباقه وأهبة للإرشاد لا نراها في بوليسنا. ويرى البعض أن بوليس لندن هو المثل الأعلى، وإن كنت أرى أن بوليس ألمانيا لا يقل عنه، إن لم يفُقه يقظة ودقة. والإنجليز يرتادون المدن بكثرة «عكس الفرنسيين»؛ لأن جل اشتغالهم في المناجم والمصانع. ولقد أثبتت الإحصاء الأخير أن ثلاثة أرباعهم من المشغلين بالصناعة والتعدين.

الرحلة الثانية يونيه ١٩٣٠

أوروبا: دول الشرق والمتوسط والشمال بين الإسكندرية والبحر الأسود

(١) إلى أتينا

في أقل من أربع وعشرين ساعة بدت أرض جزيرة «سكارباتيا» على اليمين، وكريت على اليسار في شبح فاتر، وبعد ست ساعات اضطرب البحر وزاد عصف الريح، وترنحت السفينة، وبدا مرض البحر على سيماء بعض الركبان، فانسلوا إلى مخادعهم. ولم نعجب لذلك مذ بدت جزائر بحر الأرخبيل وهي تنتشر من أيماننا وشمائلنا كأنها رُبَّي جبلية، تقام القرى على حجورها، وغالبها مجدب عارٍ عن النبت، ودخلنا ميناء بيروس ثغر أتينا، وكانت جزيرة سلامس التاريخية تُرى إلى اليسار. جبت أرجاء بيروس فبدأ قذرًا منفرًا ليس به من شيء جدير بالزيارة، وأقلني الترام إلى:

(٢) أتينا

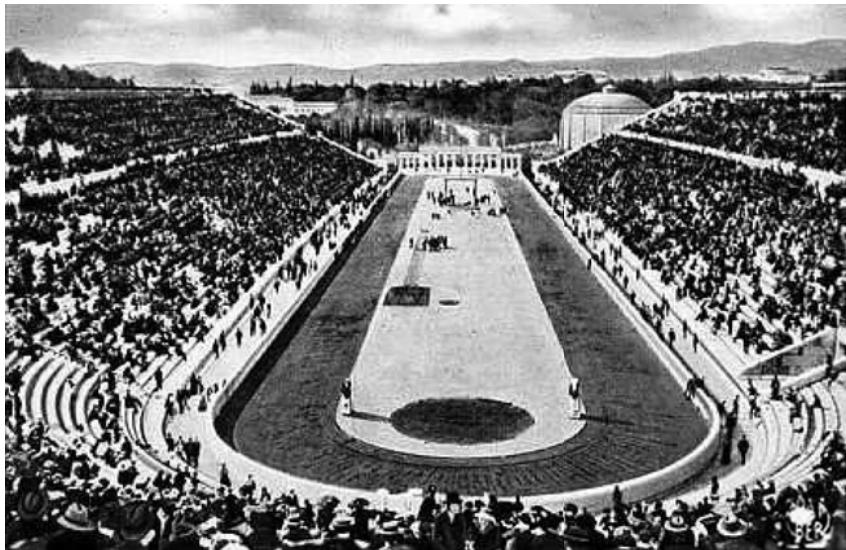
عاصمة بلاد الإغريق، وكنا نرى قبالتنا ربوة بيضاء عالية كأنها الهرم يسترعى النظر؛ إذ تمتد على مدرجاته مباني المدينة تتوجهها الأكروبول التي تسلقناها، فبدت عليها المعابد الإغريقية القديمة، وكانت مقر الملوك الأقدمين ثم أصبحت خاصة بالآلهة. وغالب الآثار قد مسته يد البلى إلا القليل، ولعل أجملها الباريثيون، وهو معبد العذراء أتينا، آلهة الحكمة، وبه ٩٨ عامودًا من الرخام الأبيض في النحت الإغريقي المجزع، ومن حولها معابد أخرى أقل شأنًا منها.

وفي أسفل تلك الربوة قوس هادريان الذي يظن أنه نهاية أتينا القديمة، ومن أفحى ما يرى المرء هناك الملعب Stadium يمتد في شكل إهليجي عظيم الاتساع، وتعلو على جوانبه المدرجات المعدة للناظرين. وقد جُدد حديثاً بالرخام الأبيض على النظام القديم، ويتسع لأربعين ألف متفرج، وفيه تعقد الألعاب الأولمبية مرة كل أربع سنين بانتظام، ولم تتوقف حتى في أيام الحرب الكبرى، على أتنى وأنا واقف بين تلك الأطلال ذكرت آثار أجدادي فتللاشت أمام عظمتها – وبخاصة الكرنك – تلك المخلفات الإغريقية، التي كنت إخالها أكبر من ذلك شأناً. أما المدينة نفسها فعادية يعوزها كثير من النظافة والنظام، طرقها مترفة، والمقاهي بها كثيرة على أن مناضدها بالخشب العادي، ومقاعدتها بالقش والخصوص كالقهاوي البلدي عندنا.



فوق أطلال «الأكروبول» بأتنينا وبجانبنا الجنديون الأردية الإغريقية القديمة.

وفي عودتي من رحلتي في سبتمبر، سلكت سبيلي إلى أتنينا بطريق أكسبريس الشرق الذي اخترق يوجoslavia، وبعد مغادرة بلدة نيش القدرة بقليل دخلنا الحدود الإغريقية



دار «الاستاديوم» مقر الألعاب الأولمبية بأثينا.

— وقد فتشنا البوليس اليوجوسلافي ونحن في القطار نحو السنتين داخلاً حدود بلادهم؛ مما يدل على عدم اطمئنانهم لرعاياهم — وقد بدا الفرق الشاسع في النظافة والنظام، وجمال الخلق والخلقية بين هذه البلاد وبين وسط أوروبا وشمالها.

وكنا كلما تقدمنا نحو أثينا زاد البؤس والجفاف في الطياع، وبدا على الخلق الهزال والجفون والملابس الرثة المرقعة، وكثير الشحاذون وأبناء الشوارع بشكل مزرٍ. والبلاد تكاد تكون صحراوية؛ فالرّبى لا يكسوها إلا العشب الخشن، وتبدو بعض المجاري المائية الصغيرة التي يكاد ينضب ماؤها حتى وصل القطار سلونيك، ثانية مدن اليونان، فمكثت بها يوماً ظنّاً مني أنها على شيء، فإذا بها بلدة قذرة قديمة مهدمة متربة، أهلها في غاية القدرة، على أن القوم جادون في إصلاح بعض شوارعها، مثل: شارع فنزيلوس، وأيا صوفيا، وشارع البحر. وميناؤها صغير تقام عليه المقاهي ودور الملاهي، وجزء من المدينة فوق الربى المدرجة، ومنظره يبدو جميلاً على بُعد؛ فإن دانيته بدا أكثر قذارة وأشد بؤساً.

على أنني هنا فقط بدأت أتدوّق الطعام الشهي الشرقي بعد ثلاثة شهور؛ حيث قدمت إلى أطباق الخضار ولحم الصأن اللذين. والفاكهة كثيرة الوجود، جيدة النوع بثمن بخس؛ إذ المعيشة رخيصة بالنسبة للأجنبي، وإن كان يراها الوطني غالياً؛ لأن متوسط دخل العامل المُجد في اليوم اثنا عشر قرشاً. وهذا القدر لا يسد عوزه. وحدث أن قام العمال بمظاهرة هناك ضد الحكومة احتجاجاً على بطالتهم، وكانوا يصيحون والبؤس يتجلّ في مظهرهم مُذّ كان غالباً حفاة خلقي السرابيل.

يركب بعضهم عربات النقل القدرة «الكارو»، ويحملون المكانيں والنبابيت. وبالمدينة بعض بقايا الأسوار والقلاع القديمة التي يرجع عهدها إلى الإسكندر الأكبر. فمن صوب أتينا بعد أن عبرنا نهر الوردار بقنطرة عظيمة الامتداد، على أن ماءه كان آسنًا؛ إذ إنه لا يكون طامياً إلا إبان الشتاء.

ولما أن انعطفت الطريق جنوبًا بدا البحر إلى يسارنا وجبال أولبيا المقدسة على بُعد إلى يميننا، ثم قاربناها تدريجيًّا، فكانت صفحة شاهقة معقدة عاتية عريت عن النبت إلا القصیر المتناشر، وأعلى ذراها ٢٨٠٠ متر، وقد اخترقنا منها جملة أنفاق أدت بنا إلى أرض تساليا، وهي خليط من الربى والسهول أعقبتها جبال ترمومبيل التي بدت أشد قسوة وأصلب صخرًا من أولبيا، وبها من المرات والعقد والاتفاق ما لا يحصى.

وكنا نسير تحتها وهي تعلو في صفحة رأسية رائعة، وبين آونة وأخرى كانت تتخلّها المجرى المختنق السريع. ولقد أثار هذا المكان في النفس ذكريات تاريخية تالدة لأمة كانت كل شيء فأخنى عليها الدهر، ولم يخلف بها إلا الفقر المدقع والبؤس المبيد.

وكانقطار يقف في محاط صغيرة جدًا وموحشة، وكنا نرى بائعي اللحم والجبن والخبز وقد افترشوا الأرض، والذباب والنحل يكاد يكسو المباني بغشاء أسود تعافه الأعين. وأخيراً أقبلنا على أتينا خلال طريق قذرة وأطلال بالية متربة إذا ما رأها السائح سئم المقام، وآثار الارتحال؛ فالطرق أسوأ إعلان عن البلد. وعامة القوم على قذارتهم يتكلمون الفرنسية، ويظهر أنّها اللغة السائدة في جميع الأحياء بين بودابست وأتينا.

أما طريق أكسبريس الشرق بين هاتين البلدين فجاد مجده فقير بمنظره الطبيعية، وحره في الصيف قائظ محرق؛ ولذلك ليس بعجب أن يكون جمهور المسافرين فيه قليلاً. ركبت البحر ولم ترك أتينا في مخيلتي من العظمة التي خلتها بها إلا قبساً ضئيلاً لم تثره آثارها، بل مظهر فقر الأهلين أولئك الذين لا يكاد المرء يعتقد أنّهم فرع عن ذاك الأصل التالد العريق.



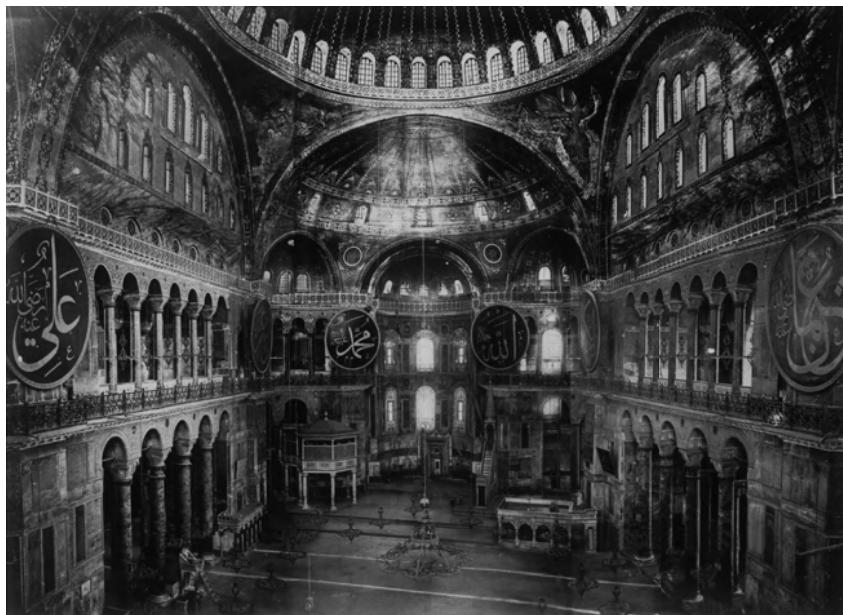
أمام طابية الإسكندر الأكبر بسلونيك.

(٣) إلى القسطنطينية

أغلقت الباخرة من الميناء وسط الربى الجزرية، وظللت هذه تبدو في جميع الأفاق في حمرة قرنفلية لا يشوبها إلا بقع سوداء من عشب وشجر منتشر، ونقط بيضاء تتبع عن منازل القوم، ثم دخلنا مأزقاً اشتد فيه الموج بين جزيرتي أندروس إلى اليمين وبخروبنت إلى اليسار، وظل الماء يضطرب طوال الليل، وما كانت الساعة الخامسة صباحاً حتى كنا بين ريوتين هما مدخل الدردنيل، عليهما أطلال حصون قديمة ومنارات مشرفة أذكرني بما كان لهذا الموقع المنبع من الجبروت إبان الحرب الكبرى.

وبعد انقضاء ساعة بين تلك الربى ظهرت على الجانبين أبنية منسقة نظيفة بينها مآذن لمساجد عدة، وقد أقيم على شطوط كل حصن جبار، وتسمى هذه البقعة المختنقية «شَنْلَ قلعة» يقطنها عدد كبير من الأتراك. وهنا جاء زورق مصلحة الصحة التركية للتفتيش الصحي، ثم بدأ بعدها منعطف شديد إلى اليمين سلكته السفينة بين تلك الربى

اللانهائية التي تكسو أعلىها الأعشاب أو الأشجار، وبخاصة على الجانب الأوروبي. وفي المخضلات يستتبب القوم القمح والشعير على المطر.



النقوش الفاخرة داخل مسجد أياصوفيا، إسطنبول.

أما الشجر فغالبها من الزيتون القاتم، وكان اتساع الدردنيل يختلف انفراجاً وانقباضاً، ولبثنا نسير فيه ست ساعات كاملات بدا بعدها على بُعدِ منا بحر مرمرة، وقد أخذت تنفرج سواحله وتتأى عنا بحيث لا تكاد ترى إلا في طفييف ضئيل، ثم ظهرت أطراف البسفور الجنوبي على بُعدِ في شكل إهليليجي يرى مغلقاً، ولا يستبين المرء له منفذًا.

وعلى جوانب القوس أقيمت المساكن ذوات السقف الحمراء مدرجة على جوانب المرتفعات، وأخذنا نتبين مآذن المساجد الفخمة وقبابها، وكلما قارينا المكان زادت تفاصيله في جمال رائع، إلى يميننا جانب إسكندر الأسيوي، وإلى يسارنا إسطنبول، وبجانبها القرن

الذهبي الذي تعبّر قنطرة جالاتا، وتصل بين حي بيرا الأوروبي الحديث شمالاً، وإسطنبول القديم جنوباً.

وتكلّم البلاد التي تُكوّن في مجموعها القسطنطينية مُقاومة على سبعة تلال تُكوّن مثلثاً، وهي في الواقع قطعة من آسيا فصلتها عوامل الرفع التي أحدثت شقاً هو اليسفور، وقصاري طوله تسعه عشر ميلًا، وعرضه ميلان، وي sisير في اتجاه من شمال الشمال الشرقي إلى جنوب الجنوب الغربي، عمقه بين ١٢٠ - ٣٠ متراً، وبه تيار دافق من البحر الأسود غالباً بسرعة عقدتين ونصف في الساعة، إلا حيث يختنق جدًا ويُحدث دوامات مرّوعة، ويعزى إلى الرياح الشماليّة الشرقيّة السائدة.



أمام مسجد السلطان أحمد، إسطنبول.

رست السفينة في مدخل القرن الذهبي قرب القنطرة «جالاتا»، ودخل البوليس لفرز جوازات السفر بدقة متبعة، والمسافرون الذين أغفلوا التأشير على جوازاتهم لم يُسمح لهم بالنزول إلى البر ساعة واحدة إلا بعد دفع رسم قدره جنيه مصرى. حللت أرض المدينة الأوروبيّة «بيرا»، ولا بأس بمبانيها ونظافتها، على أن طرقها ضيقّة ترصف بالأحجار

الصغيرة، وتعلو آونة وتهبط أخرى، وهي غاصة بالحركة التجارية، والتراكم يتلوى فيها ليات مدهشة، ويتسلق رُبُّي ثم يهوي بانحدار مخيف؛ مما يؤيد أنّ الـبلد مُقام على تلال وبها حي كثير الملاهي اسمه Taxim تتعدد به المتنزهات والمقاهي ودور الموسيقى والغناء التي تحكي «ألف ليلة» عندنا، وفيها نسمع أنغاماً شرقية جميلة، و«العود» و«القانون» من الآلات الموسيقية الهامة لديهم.

ثم عبرت قنطرة جلاتا إلى إسطنبول الحي الشرقي البحث بأزقته المختنقة وحوائنه التي تحكي جهة «خان الخليلي والخيمية» عندنا. وأجمل ما زرنا بها مساجدتها الفاخرة المتعددة التي تشمخ بقبابها وما زنها العديدة، وفي مقدمتها: «مسجد أيا صوفيا»، وهندسته تدل على أنه كان كنيسة؛ لأنك ترى الصلبان بادية في بعض نقوشه وفتحاته، بل وفي مجموع شكله من الداخل، ذاك الذي يعجز القلم عن وصف إبداعه الفني وزخرفه الجذاب في القبة الفخمة، والأعمدة الشاهقة، والفناء الرحب.



البسفور المختنق تشرف عليه طوابي «روملي حصار».

وأينما طوحت ببصرك ألفيت المخطوطات القرآنية صيغت بالذهب، وتعلق أطر مستديرة كبرى في الأركان تحمل الأسماء الكريمة المقدسة. ومن محتوياته القيمة مجموعة

من عمد خضر نقلت من معبد ديانا في أفيوس، وأخرى حمراء جيء بها من معبد الشمس في بعلبك، وهناك سجادة تنسب للنبي ﷺ، ومهد المسيح وحوضه نقل من بيت لحم، وعامود يرشح منه الماء الذي يُبرئ المرضى، وفي أبوهاته الخارجية عدة أسبلة عربية أنيقة. وقد أقامه جستنيان سنة ٥٣٢ م ليكون كنيسة، ثم حوله الأتراك مسجداً بعد ذلك بنحو تسعمائة سنة، وأمامه ميدان فسيح يزيمه من الجانب الآخر: «مسجد السلطان أحمد» بماذاه الاستدقة، وقبته الكبيرة التي ترتكز على أربعة أعمدة تتفوق في ضخامتها عمد الكرنك، وتحتها أربع قباب نصفية تحت كل ثلاثة صغيرة. والنقوش هناك رائعة، وغالبها بالقيشاني الأزرق الجميل؛ ولذلك يسمى بالجامع الأزرق أحياناً. ويتقدم المسجد مسلتان إحداهما مصرية.

هذا وتقام كثير من مباني المدينة بالخشب؛ ولذلك كثيراً ما تشب النيران فيها فتحدث أضراراً جسيمة، وقد حدّا بهم هذا إلى إقامة برج شاهق على ربوة كان يقف فيه الحراس للتعرّف مواضع النيران عند شبوبيها. أما الأتراك فيبدو عليهم النشاط جميعاً، وتفيض نفوسهم بالحماسة الوطنية، فالكل يتurbanون لقوميتهم إلى درجة الجنون: لبسوا القبعات جميعاً، وأسفر نساوهم بحيث لا يفرّقهم الماء عن سائر الأوروبيين، والحال التجارية تكتب عنواناتها بالتركية في حروفها اللاتينية الجديدة، ولا يسمح لأحد أن يكتبها بغير لغة البلاد.

مظهر القومية جميل لا نراه في مصر مع الأسف الشديد، والغازى مصطفى كمال يجب الطرق في سيارة عادية من غير حراس، وكان كلما تعرّفه القوم على بعد هاجوا وصاحوا قائلاً: «الغازى الغازى». مهلاين مبهجين، وهو محبوب منهم إلى حد التقديس، على أن القوم يعوزهم المال على ما يظهر من الحالة الرثة لكثير من أبنائهم، فهم لا يزالون يعانون من ألم ما عقبته الحرب من سينيات.

قامت الباحرة تشق عباب القرن الذهبي، وإلى يميننا مدخل مرمرة، وأمامنا مدخل البسفور، فكانت الطبيعة تتجلّى في جمال فنان من ربى ووهاد تُكسى بأشجار الفاكهة والزيتون في خضرة قائمة، وفلاط أقيمت على درج المنحدرات بسُقُفها الحمراء المنحدرة، وماذن المساجد تناطح السحاب. وكان البسفور آونة ينقبض ويختنق، وأننا ينفرج وينبسط في تعرّج خفيف، وعند كل اختناق أقيمت القلاع، وقد بدا عليها القدم والتهدّم. ولبّثنا في تلك الجنة الخلابة عشرين ميلاً وبيوت الآستانة تمتد على الجانبين الأوروبي والأسيوي، وألقت نظرنا القصر الشاهاني المشرف على الماء في الجانب الأوروبي، ومعسكر

قيل: إنه أكبر معسكرات الدنيا في الجانب الآسيوي. والحق يقال: إن هذا المنظر لا يعدله منظر في العالم أجمع، فهو يفوق سويسرا وجبالها جمالاً وروعة.

دخلنا البحر الأسود وأخذت الأرضي تنفسح حتى اختفت وراء الأفق، وكنتأتوقع اضطراب الماء في هذا البحر، وقد عرفنا أنه مقر الأنواء والعواصف الشتوية التي تلقي عليه من سحبها القاتمة الكثيفة غبرة أكسبته اسمه، ولكن ظروفنا كانت موفقة، وظل البحر هادئاً جميلاً، ولو أن ماءه لم يبلغ من الصفاء ما يبلغه ماء البحر الأبيض، وظل سمك الدلفين طويلاً ينطاح مقدم السفينة كأنه يقف في سبيلها، وأخيراً بدت أرض:

(٤) رومانيا



فلحات رومانيا يشتغلن في الحقول حفاة.

وألقت الباخرة مراسيها على مدرجات ثغر قستنزا الساعة الثالثة صباحاً. ومدخل الثغر وطيئُ قليل النظافة نرتقي خلفه ربوة تقام عليها المدينة، ولا بأس بتتنسيقها.

واسترعى نظري بها بعض المساجد؛ إذ إن المدينة وما يليها جنوبًا جزء من «دبروجة» الإسلامية التي كانت تحت حكم الترك، ولذلك لا يزال يلبس غالب سكانها الطراييش. قمنا إلى بوخارست وسط سهول مبسوطة تمتد إلى الأفق يكسوها النبت وبخاصة القمح والذرة، وكان القوم يحصدون القمح وقتئذ ٢٥ يونيه بمحاريث غالباً آلي حديث تجرها الخيول، وغريب أن تروي الأرض بالأمطار فحسب، وليس هناك من قنوات تصلاها بالدانوب وفروعه رغم قربه منها، والبيوت والقرى مبعثرة وسط تلك الحقول وجميعها تطلى باللون الأبيض وتسقف بالأجر الأحمر، وكان الجو جميلاً أميل إلى الدفء ويعمل النساء بكثرة في الحقول مع الرجال ويكثر توظيفهن في خط السكة الحديدية وعندما قارب الدانوب في بلدة «سرنافودة» اجتاز قنطرة هائلة في ثلاث قطع بينها بعض الجسور ومجموع طولها عشرة أميال لأنها تقام حول شعاب الطونة الكثيرة ومناقعه العديدة هناك والنهر وطيء هادئ متسع ويقاد يساوي التل عرضًا، وكانت ترى مآذن المساجد بكثرة في القسم الأول من البلاد، وفي منتصف الساعة الثانية عشرة دخلنا ...

(٤-١) بوخارست

عاصمة البلاد، وتسمى باريس الصغيرة لأن أحياها الجديدة تشبه باريس، جوها متطرف قائظ في الصيف، جليدي في الشتاء؛ ولذلك تنزع العربات عجلاتها شتاء تأهلاً للزحف على الجليد. ولقد استعمرا تلك البلاد تراجان إمبراطور الروم في القرن الثاني الميلادي؛ ولذلك لا يزال القوم يتكلمون لهجة رومانية رغم مضي سبعة عشر قرناً، وهي منفصلة عن روما. وقد غالبت جميع الغزوat الأخرى وحافظت على لغتها، على أن الأتراك لم يخضعوا للبلاد تماماً، بل أقاموا عليها ولاة من قبلهم كانوا ينتخبون من رعاياهم من الإغريق. وهؤلاء وشيعتهم كان لهم النفوذ الأكبر حتى إنهم لا يزالون الملوك للمساحات الأرضية الكبيرة، ويمثلون الطبقة الأرستقراطية، وهم يتربعون عن العامة، ويتكلمون الفرنسية، وتطبع جرائد them وكتبهم، وتمثل روایاتهم بالفرنسية. والطلبةاليوم يتحجون على ذلك بمرارة، ويسمون ذلك بالهوس الفرنسي .Francomania وقد كان هؤلاء القوم أشبه برؤساء الإقطاع مذ تملکوا غالب الأرضي، على أن الفلاح بدأ يمتلك الأرض، وبدأت فوارق الطبقات تخف عن ذي قبل، ونسبة المزارعين٪٨٠، ورغم ذلك فإن سكان المدن ينظرون إليهم نظرة احتقار. وقانون البلد مقتبس من القانون



كاليا فكتوريا أكبر شوارع بوخارست، وهو دون شارع فؤاد الأول عندنا.

الفرنسي، ومعظم الشئون المالية في يد طائفة من الإسرائييليين يبلغ عددهم ٤٤٠٠٠، والأجراء من المزارعين يمقتون الأغنياء؛ لأنهم لا يمرون إلا كراء زهيداً.

وهذا الحيف دعا الحكومة إلى تعديل نظام الملكية بعد الحرب، فأخذت من الملكيات الكبيرة حتى التابعة للملك منها، ووزعتها قطعاً على صغار الفلاحين بعد تعويض أصحابها، وملابس القوم بسيطة في جمال وحسن ذوق يبدو في كثرة التطریز، وزهاء الأولان، وكل نسائهم مهرة في أشغال الإبرة التي تعد أحسنها في الدنيا، وفنهم خليط من البيزنطي والسلافي. والغذاء القومي لديهم من الذرة ويسمى «مامالجا»، وهو يحكي «العصيدة» عندنا. وأحب الشراب الجعة التي تستعمل لدرجة الإدمان.

وأعظم شارع المدينة «كاليا فكتوريا» أو شارع النصر، تذكاراً لانتصارهم على الأتراك في بلغنا سنة ١٨٧٧، وبه القصر الملكي المتواضع، وبه عدة مبانٍ فاخرة. وكنائس المدينة عديدة تناهز المائتين، غالبيها على المذهب الإغريقي، وهندستها قريبة للعربية. واسم

كارول شائع في كل الحال الهامة، خصوصاً متنزه كارول، وهو فسيح بديع التنسيق، به كثير من الرُّبُّي، وتتوسطه بحيرة شاسعة، وفي نهايته يقوم متحف للأسلحة القديمة.

وبالمتنزه مسجد كان القوم يصلون به الجمعة عند زيارتنا، وكان به نحو ثلاثة شخصاً يلبسون الطرابيش، وقد خطب الخطيب وصلّى بالعربية، وعلمنا أن عدد المسلمين هناك ربع المليون، وبالمدينة كثير من المتنزهات الأخرى. بها المقاهي التي تسمع فيها الموسيقى الشجية التي تقرب أنغامها من الأنغانم الشرقية، والقسم الحديث من المدينة منسق الأبنية، متسع الطرق، كثير الفلات.



فقراء الفلاحين والرعاة في مساكنهم الريفية برومانيا.

وأهلها متألقون يؤمنون المقاهي بكثرة، وقد زرت هناك متحفاً للفن الجميل به مجموعة للتصوير لا بأس بها. أما الأحياء القديمة فتعوزها النظافة، ترصف طرقها بالحجر الأسود الصغير. وصادف أن كان القوم يعقدون محفلاً شبيهاً بالموالد عندنا،

وكانت طبقة العامة تبدو هناك في سذاجة وجهل وقدارة، يبيعون الشربات في أحواض زجاجية مكشوفة يعف عليها الذباب، كذلك اللب والسوداني والفسار الذي كان أظهر ما يتسلى به الفقراء، فُخِيلَ إلَيْهِ أَنِّي في حي تحت الربع تماماً.

ويحيط بالمدينة سور من حصون أقيم سنة ١٨٨٥، وكلفهم أربعة ملايين من الجنierات، لكن لم يغُن عنهم في الحرب فتيلًا. ويشق المدينة نهر Dimbovitzا فرع الدانوب، مأوه قذر محمر تكسوه طبقة من الطحالب المنفرة، وعنه حي قذر ترى به البيائين يفترشون الأرض لعرض سلعهم، كذلك ترى الخدم بمقانصهم في انتظار من يستأجرهم. هذا واللهجة السائدة هناك الألمانية، أما الإنجليزية والفرنسية فقليلة. ولقد كانت التجارة الألمانية رائجة في رومانيا وما جاورها قبل الحرب، وأخذت تعود لماريها الأولى.

هذا وقد لاقت رومانيا أحسن الجزاء في الحرب الكبرى، فأصبح سكانها سبعة عشر مليوناً بعد سبعة، أما أهل بوخارست فنحو ٣٥٠ ألفاً.

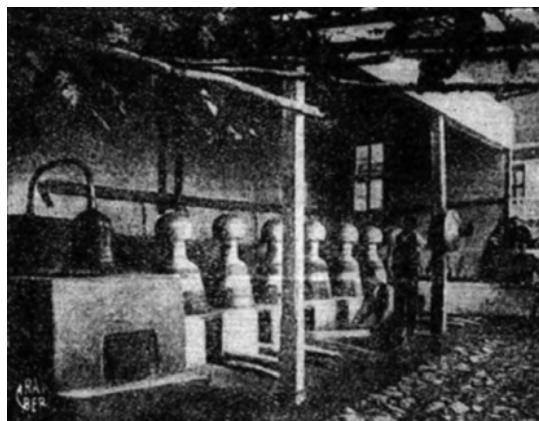
غادرت المدينة قاصداً قرية جورجو في جنوبها، وتقع على الدانوب، وهناك حللت الباحرة أورانوس، من سفن الدانوب، قاصداً القيام برحلة نهرية إلى بودابست، وكان تيار النهر هادئاً وماهٍ وطيفاً كدرًا تشوّبه حمرة، وكنا نرى بلاد بلغاريا على الجانب الآخر. وكانت السفن تقف بين آن وأخر على بلاد بلغاريا لنزل المسافرين، وكانت الماظر الطبيعية غنية جدًا بأشجارها الكثيرة، وأرضها المدرجة في تقسيمات زراعية منسقة تدل على مهاراتهم الفائقة في زراعة المنحدرات التي قد تمثل جوانبها ٤٥°.

وكانت تبدو القرى مقامة على جانب النهر بأكواخها الصغيرة، وكان الشاطئ البلغاري أكثر تموجاً وجمالاً، مما يشعر بأن النهر سلك السفح الشمالي لجبال البلقان، فكانت المرتفعات تحف بالنهر من هذا الجانب، وكنا بين حين وأخر نلقي الباخر تمخر عباب الماء في كثرة عجيبة، وترسو في محاط أعدت لذلك، وتصل إليها من البر الطرق الحديدية، مما يثبت مبلغ استفادة القوم من الدانوب في النقل، وكم كان أسفني شديداً عندما ذكرت النيل المبارك الذي يفوق الدانوب طولاً وعرضًا، لكن وسائل النقل فيه لا تتنمشي مع نهضتنا الاقتصادية!

ومن غريب ما يكون أن العلاقة بين شعوب رومانيا وبلغاريا المجاورة متواترة، فقد كنت أعتقد أن الانتقال من شاطئ إلى آخر سهل ممكן، لكنني علمت أن القوم يمنعون ذلك، ويفرضون ضرائب فادحة لمعاكسة ذلك، رغم اشتراك مصالحهما في النهر. ومن مدن بلغاريا التي زرتها مدينة:

(٤-٢) لوم

وهي أشبه بمركز صغير من مصر، طرقها قذرة متربة، وأهلها تبدو عليهم سيماء الفاقة والتشرد، وبيوتها متناشرة بين الربى والوهاد، بها بعض المساجد المهملة، وقد قيل لنا: إن المسلمين هناك يرتادونها بسهولة.



طريقتهم الساذجة في استخراج عطر الورد.

وأمم البلغار شعب من التتار حلوا هذه البلاد أوائل العصر الميلادي، ثم أخضعهم الترك لحكمهم إلى سنة ١٨٧٨ حين انفصلوا وبقي للترك الإشراف الاسمي، ثم استقلوا وطردوا الأتراك وضموا الروملي الشرقي، وقد مثلوا بالباشا التركي أشنع تمثيل؛ إذ أركبوا حصانًا وأداروا وجهه إلى مؤخر الحصان وطافوا به المدينة مهلاين محقررين، وقد دخلوا ضد الحلفاء في الحرب الكبرى طمعًا في الغنائم من رومانيا، لكن خاب فألهم وفقدوا جنوب دبروجة التي ضمت لرومانيا، وترافقا الغربية وأخذها الإغريق، ونزل سكانهم من $\frac{1}{2}$ مليون إلى خمسة.

والقوم متأخرن جدًا، أكبر مواردهم الورد ذو الروائح التي يشتمها المرء على بعد أميال، ومنه يستخرجون زيت الورد الذي أصبح العنصر الرئيسي لغالب الأعطار العالمية، وهو يساوي وزنه ذهبًا، ويقطفه الفتيات من أغنى جهاته، وهي حدائق كازانلك بالروملي

الشرقي وممر شبكا على سفوح جبال البلقان، بفضل التربة الرملية والجو المشمس، ولا بد من نقطيره يوم قطافه، وقد قدر للأوقية الواحدة من العطر ستون ألف زهرة.

(٣-٤) الباب الحديدي

بعد أن بدت سواحل يوجوسلافيا بقليل دخل النهر في عقدة من الجبال الغنية ببنتها وشجرها، وأخذ النهر يتلوى ويختنق، وتياره يشتت، وقد أقام القوم جسراً من حجر أصم وسط منعطف النهر، وحطموا جزءه الواقع بين الجسر وساحل يوجوسلافيا، وأخلوه من جنادله، فأضحي صالحًا للملاحة، وفي اتساع قناة السويس تقريبًا. أما الجانب الآخر فظل بجنادله ودوماته ومنحدراته، وبعد نهاية الجسر بقليل ظهرت جزيرة مستطيلة وسط المجرى تكسوها الغابات، وتقام فيها البيوت الصغيرة، واسمها «جزيرة أكادالي»، وبها مسجد بمئذنة دقيقة.



الباب الحديدي وجباله العاتية.

وذلك كانت في قبضة الأتراك، واليوم تحت لواء رومانيا، ولا يزال أهلها مسلمين، وبعدها بقليل رست الباخرة على أرتشوفا، آخر مدن رومانيا على النهر، وكانت قبل الحرب

تحت حكم النمسا، ولا شك أن هذا المكان ساحر في جماله، وتنوع مناظره، وتعقيد جباله ولفافاته، ومناعة موقعه. مكان أثار في النفس شجوناً كثيرة، وذكريات خالدة، بدأ النهر يدخل في ثنيات بين الربى الشاهقة سريعة الانحدار يكسوه النبت المنزوع إذا سهل المنحدر نوعاً، والبرى فوق المزالق السريعة.



وسط الباب الحديدى بالدانوب.

وبين آونة وأخرى كانت تبدو في النهر مجاميع الجنادل في جهات تجتنبها السفن بعلامات أقيمت لها وسط الماء، وفي بعضها كانت دوامات النهر قاسية عاتية، وصخور الجوانب تسير في طبقات ملتوية التواء شديداً تهوي تحت اليم، ثم تبدو ثانية على الجانب الآخر؛ مما يُشعر بأن هبوطاً عظيماً حدث في سلسلة جبال ترانسلفانيا هنا، فسلك النهر طريقه وسطها، ولا يزال يدأب على الجرف من جوانبه بنشاط غريب، يدل على ذلك أثر سهل المجر، وذلك قبل أن يهوي جانب الكربات، ويمكنه من السير إلى البحر الأسود.



بلغراد وهي تمتد على الدانوب.

أما مناظر ذاك الخانق فساحرة تأخذ بالألباب، فهي تمت إلى مناظر سويسرا بشبه قرب إن لم تفتها، ولا يعدلها جمالاً غير منظر البسفور وما يحوطه من جلال، وقد لبست السفينة تسير في ثنياته ثماني ساعات، وبعدها انفرج النهر وتبعاً للجبال سراعاً. وهنا آخرنا ساعاتنا ساعة كاملة لتسير مع زمن أوروبا المتوسط الذي يتأخر عن ساعة مصر؛ لأنه يقع غربياً بنحو ١٥° طولية، هذا عند نهاية حدود بلغاريا.

على أن الجانب الآخر من النهر، وهو روماني ظل على زمنه الشرقي حتى اجتنزا حدود رومانيا؛ ذلك لأن رومانيا تمتد على طول النهر أكثر من امتداد بلغاريا. هنا ومواسم الزراعة في تلك البلاد جميعها الربيع؛ حيث ينزل أكثر المطر، وتزرع الغلات، خصوصاً القمح والذرة، وبعد الحصاد ترك الأرض للسنة القابلة، ثم يعيدون زراعة غلة أخرى، وهناك نوع من القمح يزرع في الخريف.

فإذا ما هلَّ الشتاء نزل الثلج وكسا الأرض إلى علو قد يبلغ المتر، فيحمي النبات من البرد القارس الذي ينزل بالحرارة عشرات تحت الصفر، وإذا كان الربيع ذابت الثلوج فارتوى النبات ونما عاجلاً. وكنا نرى بواخر عديدة ليوجوسلافيا. وتلك البلاد على نفور وعداء مع جارتها بلغاريا أيضاً، وهي تحرم على أبنائهما السفر في غير بواخرها لتساعد شركاتها الملحوظة.

(٥) يوجوسلافيا

أقبلنا على بلغراد عاصمة يوجوسلافيا التي تمتد طويلاً على النهر، وعندما يصل نهر الساف أباه الطونة. والمدينة يعوزها الشيء الكثير من النظافة والتنسيق، فغالب مبانيها قذر مترب، وأهلها كذلك قذرون فقراء، وأجمل جهاتها الجزء المقام على النهر، واسم المدينة أجمل منها؛ إذ يسميها القوم بـ«بليجراد»، ومعناها القلعة البيضاء. ولقد تختلف فيها عند عودتي فلم يرقني بها شيء، وأخذت القطار إلى نيش التي وصلتها في ست ساعات، فبدت حقيقة منفرة في كل شيء.

هذا وببلاد يوجوسلافيا تضخت بعد الحرب جداً، وناهز سكانها اثنى عشر مليوناً بعد أن كانت قاصرة على حدود الصرب التي لا يزيد أهلها على خمسة ملايين. والصرب تعرف بجنة الفقير؛ لأنهم يموتون فيها أنفسهم بكل لوازمه بغير حاجة إلى النقود إلا بقدر ما يدفع الضرائب. والقوم يعيشون جماعات قد تبلغ الواحدة المائة عدداً، يخضعون لزعيم واحد يضع لهم نظام المعيشة، ويتدخل في كل تفاصيلها.

وقد يمتد البيت فييشغل حيّاً بأكمله، ويتعاون الفلاحون بوساطة لجنة اسمها Moba تؤلف من الجيران الذين يخدمون بدون أجر. ومن عاداتهم الغريبة أن يعلقوا دمية على النافذة من الداخل ليراها المارة فتدلهم على وجود آنسة ترغب في الزواج، كذلك يعلق الجميع سنابل القمح على المنازل، فإن سرقت عدداً ذلك فالأمر بقارب زواجهما، وعندئم من أمثال تلك الخرافات كثير كأن تشوى الضفادع والجعليان فيأكلها الطفل المريض ليبراً من علته، وكلهم يعتقدون أن الأطفال يطيرون ليلاً لامتصاص الدماء من غيرهم وما إلى ذلك. وقد ضم لأملاكهم «الجبل الأسود» الذي كان مستقلاً من قبل، ويعرف أهله بالقوم الشامخ والسعن التي تشبه قدماء الرومان تماماً، وتکاد تقتصر صادرات البلاد جميعها على الفاكهة بأنواعها والأخشاب.

غادرنا ببودابست سهول المجر تبدو إلى يميننا في انبساط إلى الأفق، لذلك أصبح المنظر موحدًا مملاً، وأخيراً تعددت الجزر والغدران وبدت الأشجار ومقاطع الخشب، وكانت ترقص على الصفاف هدارات مائية تحكي العوامات تتوسطها عجلة ذات أجنحة يديريها التيار فتطحن الغلال. وفي الساعة الثانية مساء، استهلت بودابست عاصمة بلاد المجر بدخانها العديدة وقصورها الشامخة وامتدادها العظيم على جانبي النهر. إلى اليمين «بست» المدينة الجديدة المنبسطة، وإلى اليسار «بودا» القديمة ذات التلال العديدة، ويخترق النهر هنا نحو سبع من القنطر الجذابة.

(٦) المجر

بلاد تشبه في نظامها الاجتماعي بلاد القرون الوسطى؛ فقد كانت إلى سنة ١٨٤٨ تحت حكم الأشراف أصحاب الأرض الذين يسخرون العامة في فلحها وفي خدمتهم نظير إعفائهم من الضرائب، ونحو أربعة أخماسهم يعملون في الحقول، وهم في الصناعة أقل نشاطاً واستعداداً من جيرانهم النمساويين، وغالب تجارتهم وأموالهم في أيدي طائفة من الإسرائييليين يناهزون الخمسة في المائة من المجموع، وهم مبغضون من طبقة الشعب، لكنهم أكثر الطبقات علمًا، فغالب الأطباء والمحامين والمهندسين من بينهم.

وفي بودابست عدد عظيم من اليهود، ولذلك يلقبها بعضهم Budapest؛ لذلك ليس بعجيب أن تباح المقامرة وتصبح مورداً هاماً حتى في الاكتتابات للمنشآت الخيرية والدينية. والمجري مرح خفيف الروح رقيق العواطف، ومن ثم كانت شهرته في الموسيقى. وهو سائح الطبع، كريم، نظيف حتى إنه يعد فرضاً مقدساً عليه أن يغسل فمه بالسوالك مررتين في اليوم، ويعنى بتطبيق ملابسه بنفسه قبل النوم، فهو في ذلك شبيه بالفنلندي الذي يمت إليه بصلة القرابة؛ إذ إن المجري آسيوي الأصل وفد إلى تلك البقعة سنة ٨٩٥ ويعيد صلته بالغول انحراف عيونه، وبروز خديه، ولغته المغولية.

ولذلك كانت المجر أشبه بواحة آسيوية وسط أوروبا، ولا يزال بينهم كثير من الرعاة المعروفيين بالمهارة في ركوب الخيل التي جلبوها معهم من آسيا، والتي أكسبتهم من الفروسية ما فاقوا بها «كاوبويز أمريكا»، وتسمى فرسانهم شيكرز Chikos. وتسترضي النظر كثرة الخيول في البراري الجافة عندهم؛ فقد يبلغ القطيع الواحد سبعين ألفاً. ونسائهم ذوات سحن جميلة للغاية، وهن مهرة في التطريز. وعادة تقبيل أيدي النساء شائعة بينهم جميعاً، فالرجل ينحني على يد السيدة يقبلها إذا بدأها السلام.



«الشيكو» رعاة المجر يروضون الخيول الجامحة.

(١-٦) بودابست

ما شعرت بالاستمتعان الكامل لما كنت أرى من تنسيق، وخفة روح، وحسن ذوق، ولين معاملة قدر ما أحسته هنا، فهي بحق تسمى «ملكة الدانوب». ويسترعى النظر فيها بوجه خاص كثرة ميادينها ذات المتنزهات والتماثيل، وكذلك تعدد قناطرها ذات المنظر الجذاب فوق الدانوب، وبخاصة قنطرة إلیصابات، قلبها النابض شارع أندرسي أوت، وفيه تبلغ حركة المرور حدّاً مخيّفاً.

ونظام البوليس على رءوس شوارعها الهمامة دقيق للغاية، فهو لا يسمح لأحد أن يسير أسفل إطار الطريق، ولا يعبر الشارع إلا في مكان معين، وعلى رءوس الطرق يحاط الإطار بسياج من سلاسل محكمة القفل، وسير العربات إلى اليسار والمارة إلى اليمين. وفي قبالة قنطرة إلیصابات ربوا بودا الشاهقة، صعدناها بطرق متلوية بين الشجر والنبت، ويقوم في أعلىها تمثال سان جيرار، وقلعة كبيرة هي أقدم بناء في المدينة، وإلى جوارها كنيسة التتويج التي توج فيها فرنسو جوزيف، في هندسة قوطية مظلمة الداخل



عند قنطرة «إليصابات» بين بودا القديمة إلى اليسار و«بست» الحديثة إلى اليمين.

يتخللها قبس ضئيل من النور ينفذ من زجاج نوافذها النحيلة بألوانه المتعددة، وأمامها ردبة يقوم فيها بعض تماثيل القديسين، ويحف بها سور تقوم أركانه في شكل الطوابي، وتنزل منها المدرجات إلى متنزه جميل يقوم به تمثال لهنياد المجري الذي طرد الأتراك وهو يرتدي لباس الفروسية بدروعه، ويقف وبيه حسامه وقد وطئ بقدميه علمين للأتراك، وكان الأتراك عند فتحهم المدينة قد حولوها إلى مسجد.

ومن أبنية بودا الجديرة بالزيارة: القصر الملكي الكبير الذي يشرف على النهر، دخلته فتجلت فيه عظمة الملك حفأً في امتداد أبهائه، والإسراف في زخرفة، وحجراته ٨٦٠. وقد بدأ المجر تشييده يوم أن حلوا تلك البلاد من آسيا، لكن الأتراك دمروه تماماً، ومكثوا يحكمون البلاد ١٤٥ سنة، ثم طردوا، ومن العجب أنهم لم يتركوا بالبلاد أثراً لا في البناء ولا في الدين؛ مما يدل على سوء إدارتهم، خصوصاً وأن القوم كانوا وثنين ولم يعتنقا المسيحية إلا قريباً.

وقد جدد القصر بشكله الحالي عهد مرياتريزا، ومن الصور الزيتية الكبيرة التي تزين بعض الجدران صورة لليوجين سافوي، وقد هزم الأتراك وكبلهم، وأخرى لفرنسوا جوزيف، إمبراطور النمسا، وهو يتوج ملكاً على المجر. وهذا تذكار لبدء العهد البرلناني، ثم صورة أخرى لفرنسوا في رداء «الهوسار»، والكلمة مجرية معناها «العشرون» أخذت من أن الجندي الذي يقع ترتيبه في صف المجاهدين العشرين كان يعفى من القتال ليؤلف فرقة الحرس الملكي.

ومن آيات فن التصوير لوحه بها منظر طبيعي لطريق يقف وسطه فارس يمتطي جواداً، فإذا نظرت إلى الصورة من اليمين امتد الطريق إلى اليسار، وكان الفارس متوجهًا كذلك، والعكس إذا نظرته من اليسار، ويواجهه القصر من الجانب الآخر للنهر: البرلان، ولعله أفحى مباني المدينة من الخارج، يشرف بأبراجه وأسنانه الباسقة المتعددة وقبابه الخضراء الجذابة، ومن الداخل يبدو بنقوشه وزخرفة الفائق، فهو في مجموعه أبدع إتقاناً من برلن لندن.

ولا يزيد عدد أعضاء المجلس الأدنى عن أعضاء المجلس الأعلى كثيراً؛ مما يشعر أن للأشراف أثراً كبيراً في البلاد، ويمثل به رجال الدين من الكاثوليك والبروتستانت واليهود. والمليادين حوله منسقة تنسيقاً عظيماً، فسيحة الرحاب جداً. وهناك أقيمت نصب تذكاري احتجاجاً على معاهدة الصلح، وبه أشخاص يمثلون هيئات المجر، وهم غضاب نافرون في مظهر مخيف احتجاجاً على حرمانهم من كثير من أرضهم، وكذلك احتجاجاً على نفي مليكهم شارل الرابع وعائلته إلى جزائر مديراً.

وكان قد فر بعد دخول البلشفيك، ثم حاول العودة مرتين، لكنه أرغم على الانسحاب بتهديد من يوغوسلافيا وشيكوسلافاكيا. وقد مات شارل ولا يزال ابنه «أتو» منفياً في الجزيرة، ويطالب الشعب بعودته ملكاً. وقد رفضوا الجمهورية وعينوا نائباً عن الملك إلى أن يتمكنوا من فك عقال هذا. وقد لبست البلاد تحت حكم البلشفيك ١٢٤ يوماً بزعامة



بودابست: دار البرلان الفاخرة على الدانوب.

إسرائيeli اسمه كوهين، على أن مجلس الأمة اجتمع في هيئة واحدة ورفض الاعتراف بالبلشفية، وأباح الاشتراكية فحسب.

ومن المتنزهات الرائعة جزيرة مرجريت إلى شمال المدينة، وهي مجموعة حدائق منسقة تقام بها الألتزال الفاخرة، والحمامات البديعة، والبرك المعدة للرياضة، يؤمنها القوم عند الأصيل طلباً للراحة والهواء الطلق، وتصلها ببودابست قنطرة بثلاث شعاب، ومن متاحفها القيمة المتحف الفني، وتعرض به آيات التصوير القديم والحديث التي تثبت أن المجر ليست أقل عناية بالفن من كبريات دول أوروبا.

أما المتحف الزراعي فحدث عن عظمته، فهو حقاً معدوم النظير في العالم كله، معروضاته غنية وقيمة للغاية، ترى به خرائط زراعية لمناطق الزراعة وللغلات نفسها مفصلة، كذلك أنواع الأسمدة المختلفة والعناصر المعdenية التي تتالف منها تربة بلادهم. وأهم الأقسام قسم الغلات نفسها تعرض في نماذج وافية في سنابلها وكيزانها وأغصانها. وتبعد الجذور نامية في سوائل داخل أحاطونات غليظة من زجاج. ومدهش أن ترى طول

جذور بعضها فوق المتر، وسمك مجموع الجذيرات قدم، وبخاصة القمح والأرز، وجذور الكروم تمتد نحو أربعة أمتار.

كذلك ترى نماذج لطرق الحرش والري وللآلات نفسها، ووسائل تخثير الشجر، ثم ترى بعض الغلات معروضة في أحجام تسترعى النظر، فقرن الفول طوله شبر ونصف، والقرع العسلي قطره ذراع، والكمثرى في حجم الشمام، والتلاف في حجم البطيخ، والجوز في حجم كرة التنس، كذلك ترى آفات جميع النباتات في مختلف أطوارها، ونماذج كاملة للقري والزرابي والمزارع والمعامل، وببعضها يشغل بهواً بأكمله. وفي الطابق الأعلى تعرض كافة حيوانات البلاد محنة، وأظهرها الخيول التي خُصص لها فهو كامل، ثم البقر والخraf والدجاج التي تبلغ الواحدة حجم الديك الرومي، والأوز والحمام والدجاج الرومي والأرانب، ثم دود الفز وتربيته، وجمع الحرير وإعداده.

وقد علمت أن جلاله الملك قد زار هذا المتحف، وسرّ به كثيراً، ويعتمز إقامته مثله في مصر، وقد عرضت حكومتنا أن ينتدب مديره لإدارة متحفنا عند إكماله مقابل مرتب قدره ١٥٠٠ جنيه في العام، وهو الآن نزيل مصر. الحق أنه أجرد بنا أن نقيم متحفًا كهذا يخدم الزراعة ولا تزال أكبر مواردنا. ويطبع القوم مجلدات زراعية قيمة بمختلف اللغات، ويوزع غالبها مجاناً. وقد قابلت وكيل المتحف وحدثته بشأن مصر وشئونها الزراعية طويلاً، وقدم إلى مجلداً بالإنجليزية لختلف غلات الدنيا.

وقد لاحظت أنهم يكررون من طبع الخرائط لبلادهم بحدودها الطبيعية الكاملة، ويعرضونها في كل مكان، مظهرين للعالم مقدار الحيف الذي حل بهم في معاهدة الصلح، ويزعمون أن شعوبهم تشمل ٢١ مليوناً من الأنفس ولم يُعط لهم في المعاهدة إلا ثمانية، وتلك الأجزاء ضمت لرومانيا وشيكوسلافاكيا والنمسا وإيطاليا ويوغوسلافيا، وهم ينشرون الدعاية ضد هذا التقسيم تحت عنوان مأساة هنجاريا.

(٧) النمسا

البلاد الجديرة بالاعطف: غادرت بودابست منتصف التاسعة صباحاً قاصداً فيينا حاضرة، النمسا، تلك البلاد التي تتمثل في أهلها الجاذبية ورقة الحاشية إلى كفاية في الأعمال، فهم دائمًا باشون رغم جدهم اليوم في الحصول على الرزق، عكس ما تراه في الألماني الذي يبدو لأول وهلة مقطب الوجه؛ فالنمساوي قلما يغضب لشيء، وهو مثقف مذ كان التعليم يقصر عليه دون زملائه من الجنس السلافي؛ ذلك لأن النمسا كانت تحتقر أتباعها من

غير الجنس германى، وهذا سبب تمرد تلك الأجناس عليها وانسلاخهم منها بعد الحرب الكبرى.

وصلت فيينا منتصف الساعة الثانية مساءً، فبدت من المائين الفاخرة بمبانيها الضخمة وطرقها الفسيحة ومتزهاتها الجذابة، وبخاصة على طريق «الرنج» الذي يطوقها، ويحصر داخله فيينا القديمة، وهو أفسح طرق الدنيا تحفه أشجار وارفة مزدوجة، ومن أآخر مبانيه:

(١-٧) البرلمان

ومدخله ذو شعبتين تؤديان إلى البهو الأوسط، وعلى جانبيه سلماً يؤديان إلى الطابق الأول، وفيه ردهة فخمة على النمط الإغريقي أعدت لفسحة الأعضاء، ثم دار المجلس الأدنى، وبه ٥١٢ مقعداً لأعضاء الولايات التي كانت خاضعة للنمسا قبل الحرب، وقد نزل العدد اليوم إلى ١٦٥؛ لذلك أصبحت هذه الغرفة لا تتناسب مع عددهم القليل، فأعدوا لهم غرفة أصغر منها، وتركت هذه بأثاثها القديم، وفي الجانب الآخر: المجلس الأعلى، وقد نزل عدد أعضائه من ٥٠ إلى ٢٤٢، وهناك صالة للجنة المالية تزين جدرانها صور زيتية لفرنسوا جوزيف ووزرائه، ثم جميع أعضاء البرلمان. والبناء فخم يُكسى داخله بالرخام الذي جيء به من غاليسيا وتزيينه التقوش الفاخرة.

زرنا بعد ذلك متحف الآثار والفنون، ومن آثاره القيمة: القسم المصري والإغريقي والروماني، وحجرات كل قسم تقوم في هندسة البلاد نفسها، وفي الدور الأعلى معرض التصوير، ومررت على دار الاستشارة بأبراجه الباسقة، وبجانبه الجامعة التي دخلتها وطفت بأرجائها، وكانت حركة الطلبة من الجنسين ناشطة، وبخاصة في المكتبة الفسيحة التي كانت تغص بالطلاب وهم منكوبون على درسهم، ومنظرها الخارجي يمثل عظمة العلم وخلوده.

ثم قصدت متحف التاريخ الطبيعي، وبه مجموعة غنية جدًا؛ ففي قسم الجيولوجيا قطع لا حصر لها من بلورات يزيد طول الواحدة على المتر، وبخاصة الكوارتز والجبس، وكتل من ذهب خالص في طول ذراع غالبها من أستراليا وأرال، وأخرى من معادن غفل والداليات والصاعدات «ستلاتكيت وستاجميت»، وكتل من ملح يزن بعضها ٢٢٤٠ كيلوجرام، والبعض ١٦٨٠ في مكعبات أو مسلات، وحصى غليظ شق وسطه فبها منقوشاً في تجزيع طبيعي مدهش. وأنواع الرخام الغفل والمصفول من مناجم غاليسيا بألوانه



«الرنج» أفسح طرق الدنيا تشرف عليه دار البرلان في فيينا.

العجبية، وخشب متحجر قد يبلغ طول الشجرة ثلاثة أمتار، وحفريات لأوراق الشجر مطبوع على الصخر أو على الفحم بأشكال عدة، وقطع من ورق الشجر المتحجر ينفذ منها الضوء فتظهر تفاصيلها جلية، ويرى الذباب وهو مطبوع عليها. وبه قسم للحيوانات البائدة التي قد يشغل الواحد منها الفنان بأكمله، ثم آلات العصر الحجري والحديدي، وهيأكل الإنسان في مختلف العصور، وجماجمه من مختلف القارات والأزمان، وبناء المتحف فخم للغاية، ويعلق بندول فوكولت في قبة البناء لإثبات دورة الأرض حول محورها أمام الزائرين.

ومن المتنزهات القيمة في المدينة Prater، يشبه الغابة بكثرة أشجاره، وبه مجموعة من الطرق المعبدة والملاهي والمراقص ودور الموسيقى، فهو مكان تسلية عام، وفي جانب كبير منه دور للألعاب على اختلاف أنواعها من أراجيح وقاطرات ودور للملاهي لا حصر لها. وهذا المكان يظهر مبلغ ميل الشعب النمساوي للهو والمرح، رغم ما حل به من نكبات الحرب ومعقباتها القاسية.

(٢-٧) قصر شوينبرن

مسكن ماريا تريزا الأنثى، تمتد من حوله المتنزهات، وقد شذب شجرها في شكل بوابات وأقواس، وفي الأرض بدائع الزهور، ولفائف الطرق تمتد في كل جانب من القصر إلى قصاري مسارح النظر، والناقوسات والبحيرات تتراهمي أمام القصر. دخلناه فبدا فاخراً به مجموعة من مخطوطات ماريا تريزا بتوقيعها، وكرسي العرش، وحجرة الطعام وقد مد السماط بكامل أدواته.

وتزين جوانب الحجرات الصور الزيتية التي تمثل الحروب والحملات، كذلك تُعرض به مجموعة من جواهرها وأسلحتها ونياشينها وبعض الأعلام التي كسبتها في الحروب. أما الأثاث ففخم للغاية، وعلى أشكال متنوعة، أجملها حجرة النوم وسماط للشاي بأوانيه من الذهب الخالص، كذلك بيانوها ذو الطبقتين، وبجانبه مجموعة من النوتات الموسيقية لوزار وغيره.



شوينبرن قصر ماريا تريزا في فيينا.

أما الحجرات نفسها فياخذ نقشها بالأبصار، فمن خشب مطعم بالذهب الخالص في إسراف شديد، وقماش يغطي الجدران وقد وُثّي بالألوان الخلابة، فهو حَقًّا قصر لائق بعظمة الملوك الخالدين، رغم أن الملك شارل، آخر ملوك النمسا، قد وَقَع صك اعتزاله الملك في إحدى تلك الحجرات الفاخرة التي بلغت نفقاتها أربعين ألف جنيه.

وفي المساء دخلت الأوبرا، وكانت تمثل رواية Boheme الغجرية، فبدت الدار في جلال واتساع يضم ٢٢٦٠ نفساً، ألا واجهاً أربع طبقات فوقها مدرج فاخر لأعلى التيترازو، ومشاهد التمثيل كانت رائعة، أتعجبني منها منظران: منظر حانة الرقص غصت بالعجز، ومنظر المساكن وسط الليل وقد هطل الثلج عليها في رهبة موحشة، كذلك لا أنسى فرقة الموسيقى التي كانت تفوق المائة عدّاً.

يعجب المرء إذ يرى كل تلك العظمة في بلد يضم أكثر من ثلث سكان مملكة كان ملكها يمتد إلى الأفاق، فكيف يمكن لما ينتمي لهم الصغيرة الآن أن تسد تلك النفقات، وتقيم تلك المظاهر. حَقًّا إن موقف النمسا ليبعث الشجون ويثير العطف على ذاك الشعب الرقيق الذي أضحى مُثْقَلاً بالديون الأهلية والأجنبية، حتى إن الحكومة تلجم إلی فرض الضرائب الباهظة على الدخل تلك التي قد تبلغ خمسين في المائة، وبخاصة على الأغنياء أمثال رتشلد، خصوصاً بعد أن انحط إنتاجها الصناعي الكبير، واندفع المتعلمون إلى طلب الوظائف الحكومية التي أخذت تضج من كثرتهم - تشبه مصر في ذلك.

والمدينة آخذة في الاحتضار، إلا إذا قام ائتلاف بين صغار الدول من حولها واعتبروها مركزاً لهم، وإلا أصبحت أثراً بعد عين، وحل بها ما حل بطيبيه ونبيوي وبابل؛ ولذلك ليس بعجب أن يؤيد فكرة انضمامهم لألمانيا عدد كبير منهم.

ويحيط بالمدينة مجموعة من الضواحي التي يستهوي جمالها الزائرين من بينها:

Cobenzl (٣-٧)

التي تعلو فيينا بنحو ١٢٠٠ قدم، وتقع إلى جنوبها، والطريق إليها كثير الربّي تكسوها الكروم التي زادت شهرة الإقليم في النبض، ولزياته من الأعاجيب، وكنا كلما علونا كشفنا مناظر فيينا ومن حولنا الربّي تكسوها الغابات، وفي نهاية الطريق نُزُلُّ فاخر أعد للمقام الهانئ والمتعال الكامل.

(٤-٧) سمرنج

ولعله أجمل ضواحيها الجديرة بالزيارة. ظل القطار يسير بنا ثلاثة ساعات ونصف وهو يجوز مناظر ريفية هادئة التغضن، ومررنا في الطريق على بادن وعلى راكس؛ حيث بدأت الجبال، ودخل القطار في أنفاق لا عد لها، وهي في مجموعها تُكَوِّن نفق سمرنج الذي يصل النمسا بإيطاليا عن طريق فيرونا، وكانت تُرى القرى في بطون الأودية من دوننا، وتنتشر بيوتها الصغيرة على جوانب المنحدرات.

وأخيراً وصلنا مدينة سمرنج، وهي مصطفاف جميل لا يُسأم المرء المقام فيها قط، تكثر من حولها الطرق الجبلية الملتوية ذات المقاعد المثورة، وهي على ارتفاع ألف متر، وبعد أن أمضيت فيها زمِّنًا رجعت إلى ثلث الطريق؛ حيث أخذت ترامًّا إلى راكس، وهي المدينة التي تحيط بها مجموعة ذرٍ تُكَوِّن جبال Rax Alpes، وهي تماثل سمرنج، وفي نهاية الترام أقام القوم ترامًّا آخر هوائِيًّا يصعد على أسلاك معلقة إلى قمة مشعرة تكشف منظر القمم الأخرى جميعها في مشهد يأخذ بالألياب.

ركبنا تلك العربية المعلقة، وقد وسعت عشرين نفسًا، وأخذت تصعد بنا وكانت تنضر من تحتنا تدريجيًّا وتكتشف مدن الأودية الأخرى، حتى وصلنا القمة بعد نصف ساعة وكأننا طائرون في الهواء. ولا أستطيع أن أصف مشاهد الطبيعة التي تجلت أمامنا من تلك القمم، فالغابات إلى مد البصر، والصخر لا يخلو في مكان من التبت، وغدران المياه تنزل إلى بطون الأودية في خرير جذاب، والسحب تبدو وتجلو، وخلالها تستبين الشمس تارة في قوة، وأخرى في فتور، وقد طال تجوالي في تلك الربى، ولولا ضيق الوقت لرغبت عن النزول.

(٥-٧) بادن

ومن ضواحي فيينا التي لا يصح إغفالها بادن، التي وصلناها بtram كهربائي وعربة أمنبيوس، فألفيناها جنة تزيتها حماماتها العديدة، وهي تَغْصُّ بحدائقها ومقاهيها وأنزالها، ومن حولها التلال العالية يكسوها الشجر، وعلى جوانبها شقت الطرق المختنقة تصفُ بها المقاعد والمناضد يجلس عليها من أراد، وهي شبيهة بإكس لبان، تلائم الحياة الهدئة التي لا تقبل انتقالاً إلا بين ثنيات التلال بجوارها، وعلى مقربة منها زرنا «لكسمبرج»، وهي متزه كأنه الغابة كثيرة القنوات والبحيرات، وبها قصر على نظام



أمام مدخل نفق «سمرنج» بالنمسا.

قلاع القرون الوسطى أقيم وسط جزيرة — وقد دخلته — وهو يحوي جانباً من الآثار القديمة والصور الزيتية، وبه بعض الأبهاء والحجرات فاخرة النقوش. ويدهشني من أولئك القوم عنایتهم بأماكن النزهة لهم ولأبنائهم، من إقامة الفنادق، وتعبيد الطرق، وتيسير سبل الاتصال، وتوفير أسباب الراحة حتى فوق تلك الجبال النائية. وقد بلغ بهم غرامهم بالطبيعة أنهم لا ينفكون يرتحلون كلما أتاح لهم وقتهم ذلك، والكل يرتدون ملابس الرحلات في شيء كبير من التقشف، ويحملون وراء ظهورهم جعباً كبيرة، وفي أيديهم العصي، وهم يتسابقون في الصعود والركض رجالاً ونساء وأطفالاً، شيوخاً وشباناً.

ويخيل إلى أن هذا نظام شبيه بالكتافة العسكرية أو بنظام الفاشيست الإيطالي، والإقبال عليه شائع بين الجميع. هذا والاختلاف إلى المتنزهات التي تملأ الميادين كلها مقدس لديهم حتى وقت الظهيرة، حين ترى الأطفال مع مربياتهم وأمهاتهم يمرحون في تلك الحدائق وقد زود بعضها بالحمامات — أعدت للصغرى — ويفغلب أن توجد مقصورة في



الترام الهوائي يناظح السحاب في صعوده إلى ذرى جبال راكس بالنمسا.

الحقيقة لأجهزة الاختبارات الجوية، وترى الكل حتى الصبية والرعاع يرقبونها ويتفهمون منها حالة الجو المنتظرة.

(٦-٧) سالزبرج

وصلتها في أول سبتمبر في عودتي من ميونخ، وكانت مناظر الطريق سهولاً، ثم ما لبثت أن أخذت الربى تبدو وتتزايـد حتى دخلنا المدينة بعد ساعتين ونصف، وهي في وهدة بين القمم التي تكسوها الغابات، وتسلـل على جوانبها الغدران. وأول ما زرنا بها: مناجم الملح الشهيرة في إحدى ضواحيها الداخلة في الحدود الألمانية، وتبعد عنها بساعة ونصف في الترام. وهنا ألبـسنا الحراس أردية خاصة تشبه أردية السجون عندنا.



تقدمنا تلك الجرار الكهربائية في سراديب مناجم الملح بسالزبرج.

وركبنا جراراً كهربائية مستطيلة أوغلت بنا في سراديب لا حصر لها كأنها السريبوم في سقارة ذات شعاب متعددة، وفي طوابق مختلفة، صعدنا بعضها بالدرج، وهبطنا البعض بالانزلاق الذي يبلغ أحياناً خمسة وعشرين متراً، وكذا بين آن وأخر نرى تجاويف شاسعة في الصخر عند أمكنا استخراج المعدن، وفي كل تجويف يعرض القوم نماذج من الملح مختلف اللون في شكل مصابيح زجاجها من الملح. ومن التجاويف ما يملئه الماء في بحيرات أكبرها خمسون متراً. جبنا أطرافها في زوارق، والكل يضاء بالثريات الكهربائية، وكانت درجة الحرارة داخل المنجم منخفضة إلى حد يشبه الجليد، وعلو بعض نواحي المناجم يناهز ثلاثة آلاف المتر. والحق أن الإنسان ليدهش لجهود هؤلاء الجبابرة من الألنان؛ لعظيم المشقة التي لاقوها في إنجاز عمل خطير الشأن بهذا. وقد لبست داخل المنجم نحو ساعة.

قمت بجولة استعرضت فيها كل مدينة سالزبرج الظرفية التي تقع على جانبي نهر Salsach، وهو يتلوى بلونه المخضر وتياره السريع تعبره القناطر المعلقة الرشيقة، وقسم



الساizer يشقها نهر سالزاك بلافائمه العجيبة.

المدينة القديم يقع إلى يساره، وطريقه مختنقة جدًا غاصة بالحركة من الزائرين، وبها جملة كنائس فاخرة وقصور لبعض الأرشذوقات مثل Mirabell ودار الحكومة. وأجمل ما راقني كثيراً موطن موزار الموسيقي الشهير، فله هناك بيتان: أحدهما ولد به، والثاني كان يقطنه، وفي أحدهما تقيم الحكومة متحفاً باسمه تعرض به مخلفاته، وله ميدان يقوم فيه تمثاله، وقنطرة تتوج باسمه، فهو خير من أنجبته المدينة. وتشرف على المدينة قلعة قديمة ضخمة على علو ٥٦٠ متراً تسلقناها بترام كهربائي، فتجلى منظر المدينة تعانقها الربي من حولها، ويجري من تحتها النهر التعباني، فكان المنظر فداً فاتناً؛ ولذلك لم أعجب لما علمت أن بعض الشعراء قد عدّها ثالثة مدن العالم جمالاً، فالمدينة مصطفى غني بمناظرها الخلابة وأنزاله الفاخرة.

(٨) شيكوسلفاكيا

مثال التضحية والثبات: غادرت فيينا، عاصمة النمسا، فكنا نسير في مروج وغابات تكسو الأرض الموجة، وما لبثت أن تعددت الربي، واشتدت كثافة الغابات، كلما قاربنا هضبة بوهيميا، وكان جل صادرات القرى من الأخشاب، ولما دخلت حدود شيكوسلفاكيا زاد تعقيد الجبال، وهي تكاد تخنق بالشجر، وبدأ الصخر يتغير؛ إذ تحول من الجير إلى



إلى جانب تمثال موزار بسالزبرج.

النيس والجرانيت، وأخذ القطار في الهبوط تدريجاً حتى دخلنا براج عاصمة البلاد، بعد أن اجترنا نفقاً طويلاً.

وكان يومنا كله غائماً ماطراً ظل الوابل طوال النهار وشطرًا كبيرًا من الليل، فكأني بذلك قطعت أكثر من نصف هضبة بوهيميا، أغمى أقسام تلك البلاد الفتية العتيقة: فتية؛ لأنها حديثة عهد بحياة الاستقلال الجديدة، وعтиقة؛ لأنها غالبت الزمن طويلاً، فلقد أمهما منذ القدم خلق من البدو كثير أولهم الكلتيون، ثم جاء شعب من الأлан، ولم تنزل أمم

السلاف بها إلا في القرن السادس، واحتلوا فكان من الجميع شعب شيكوسلافاكيا، وقد اندمجو في الإمبراطورية الرومانية الغربية، وفي ٨٣٠ استقلوا واعتنقوا النصرانية. ولما أغار المجر على الدانوب انحلت إمبراطورية مورافيا، وانفصل صقالبة الشمال عن صقالبة الغرب، والتشيك عن السلافاك نحو ألف سنة، على أن الروح الشيكوسلافاكية لم تخدم بينهم قط، وقد نهض قوم من التشيك في بوهيميا وكونوا لهم دولة دخلت مع الدولة الرومانية المقدسة في حروب شعواء بين القرن العاشر والرابع عشر، وأخيراً حصلوا على استقلالهم في القرن الخامس عشر.

ومن أكبر أمراء التشيك الذين ساعدوهم على بناء دولتهم «سانت فاكلاف»، الذي أقيم له حفل هذا العام بمناسبة مرور ألف عام على موته، وقام «جون هوس»، الأستاذ بالجامعة، بمجهود في تثبيت أركان اللغة التشيكية، وصبح التربية بصبغة قومية، لكنه اختلف مع زعماء الكنيسة فحوكم وُقُضي عليه بالحرق سنة ١٤١٥، فألهب ذلك نار الحروب الهوسية، وأقام الثورة ضد الكنيسة، وأخيراً انتخب فرديناند، الأرشادوق النمساوي من أسرة هيسبرج، ملكاً على بوهيميا.

وبهذا انتهى استقلال بوهيميا بذاتها، وحلت فيما محل براغ في الحضارة، وحاول فرديناند إصلاح ما بين الشعب وروما لكنه فشل، وزاد في كراهية الشعب له تقديره نظام الملكية، فألقى الشعب ممثلي الحكومة في براغ من التوافد، لكن ثورتهم أخمدت في قسوة بعد واقعة الجبل الأبيض سنة ١٦٢٠، واضطهد التشيك وبخس حقهم، واستمر التدهور على أيدي النمساويين، ومنعت دراسة اللغة التشيكية من المدارس والكنائس.

وقد ساعد أشراف التشيك الأعداء النمساويين على الشعب حتى تم استعباده سنة ١٧٢١، عهد شارل السادس، وفي حكم ابنته ماريا تريزا أصبحت فيما كل شيء، ومحيت دولة التشيك من الوجود، على أن عقلاً الشعب ما فتئوا يوقفونه، خصوصاً بعد نشر المذهب الحر في فرنسا، لكن قاومهم مترنيخ برجعيته حتى كانت سنة ١٨٤٨، حين منحوا بعض الحريات وبدعوا يطالبون بالاستقلال.

وعلى أثر الملكية الثانية «النمسا والمجر»، تصرف هؤلاء في رعاياهم من غير الجنس germani كما يشاءون، فقاوم التشيك حتى نالوا بعضاً من استقلال التعليم، فبدأ العلم يزدهر في بلادهم ثانية، وأخيراً قامت الحرب الكبرى فتأهبت التشيك لمناصبة النمسا العداء، وانحاز رجالهم إلى جانب الأعداء، وكانت النمسا قد أعدتهم للدفاع عنها فحاربوا ضدها في الروسيا وإيطاليا وفرنسا.

ثم تألف في باريس المجلس الوطني التشيكي تحت زعامة الدكتور مزريك، الأستاذ بجامعة براج، الذي فر إلى خارج بلاده تفادياً من اضطهاد النمسا وشنقه عن العمل لصالح بلاده، وأخذ هذا المجلس يعمال لتحرير البلاد، وتأسست في شيكوسلفاكيا جمعية سرية سميت Maffie لإنقاذ شعور الأهلين، وإشعارهم بقرب الاستقلال، حتى تمت هزيمة دول الوسط، فتحرر التشيك من ظلم مبيد ظل ٣٠٠ سنة.

وفي ٢٨ أكتوبر سنة ١٩١٨، أعلنت الجمهورية وانتخب لرياستها مزريك، وهو الآن الرئيس للمرة الثالثة. وعدد سكان بلاده اليوم ١٢ مليوناً، وهم نشيطون في الزراعة، وأخذوا ينشطون للصناعة، وفيهم مواهب فنية، خصوصاً في الموسيقى، والناس عميلاً إلى حد كبير، وهم في الدين إباهيون قاوموا الكاثوليكية، ويفاخرون بعدم دخول الجزوiet بلادهم، وقد دمرت كنائس الكاثوليك بسبب إهمالها، ومن فرقهم الممتازة فيما يحاكي الكشافة Sokol، أو الビزة وشعارهم «كونوا أشداء».

(١-٨) براج

عاصمة البلاد، ومعناها «الباب»؛ لأنها أول ما سكن من أرض بوهيميا. تقع على نهر صغير اسمه Vltava من روافد الألب، سكانها يناهزون ثلاثة أرباع المليون؛ حيث إن عددهم ضوعف بعد الحرب حتى إنك لتجد في خارجها قسماً حديثاً كأنه مدينة ثانية، والمباني تمتد فيه بسرعة عجيبة.

وقد بدأت المدينة صغيرة فوق ربوة بني حولها سور، وأخذت تمتد. وفي ١٦١٤ انتقل الإمبراطور إلى فيينا وترك براج تحت حكم الولاية الذين اضطهدوا البروتستان، فبدأت المناوشات الدينية، وألقى ممثلو الإمبراطور من النافذة، وبذلك بدأت جذوة حرب الثلاثين عاماً التي عمّت أوروبا الوسطى، خصوصاً بوهيميا.

وعقب هزيمة التشيك في التل الأبيض ١٦٢٠، إحدى وقائع حرب الثلاثين سنة، التي هزم فيها البروتستان، أخذوا يقاومون مظالم فادحة، وشنق ٢٧ من زعماء الاعتصاب في ميدان المدينة، وظلوا اضطهاد حتى كانت ١٦٤٨ حين هاجمهم السويد، لكن الطلبة حموا القلعة بـمهمجهم.

وفي ١٧٥٧ في حرب السنين السبع، أصابت براج نكبة فادحة حين دمرها ملك بروسيا بالمدافع، وفي ١٧٧٣ في حكم ماريا تيريزا، الذي أمر الجزوiet، ودُمر كثير من الأديرة والكنائس، وفي ١٨٦٦ قاست أيضاً من حروب بروسيا، وفي بدء الحرب الكبرى



براهة: الميدان التاريخي الذي سُنق فيه مثير واقعة التل الأبيض.

أصابتهم أهواز كبيرة. وبفضل تضحيتهم وصبرهم قاوموا المجاعات، وكانت جمعية «مافي» تستنهضهم وتتوثّفهم بقرب الخلاص، وساعدتهم مزريك من الخارج حتى كان يومهم المشهود يوم ٢٨ أكتوبر سنة ١٩١٨ حين خلعوا النير النمساوي وأعلنوا الحكم الجمهوري. وبدأت براج تشعر بمسؤولية كبرى وهي دائبة على الإصلاح من جميع نواحيه بهمة تكاد تأتي بالمعجزات؛ كي تصبح عاصمة تليق بدولة ناهضة كبرى.

فبراج تسمى بحق «روما الشمال»؛ لأنها صفحة تاريخية تبدأ حوادثها منذ ٣٥٠٠ سنة، ولعل أجمل ما رأيت فيها: القصر الملكي الذي يحوي بعض البقايا الأثرية من القرن التاسع، وتشمخ حصنونه وأبراجه على نظام هندسة القرون الوسطى. وأبدع أبهائه البهو الإسباني، وهو آية في الفخامة والزخرف، واليوم يقطن الرئيس مزريك ثلاثة غرف منه فقط، وحراس القصر يلبسون الأزياء المختلفة، فبعضهم على نمط الملابس العسكرية الفرنسية، والبعض الطليانية، وأخرون الروسية؛ ذلك لأن أجناد التشيك انحازوا للأعداء، فكان منهم المحارب في صفوف الجيش الفرنسي والطلياني والروسي. وإلى جانب القصر

كنيسة سنت فيتس، وبناؤها قوطى فخم بديع، وفيها يدفن ملوك بوهيميا وأباطرة الدولة الرومانية المقدسة، وبها بعض الذخائر والجواهر المختلفة عنهم.

ثم زرت قصر ولنشتين^١ في حي مالاسترانا — وكان دوق فريديلند في صدر القرن السابع عشر — وهندسته إيطالية في ضخامة يعوزها الجمال، وبه بعض مخلفاته وأسلحته وأثاثه، وحصانه يرى محشواً منحطاً، وبالقصر حديقة بديعة شاسعة، وبجانبه بيت صغير كان يقطنه موزار الذي ظل زمناً يمثل بنفسه في دار التمثيل هناك، كذلك راقني زقاق قدر بدأت به شعلة حرب الثلاثين عاماً في حي Vladislav.

وفي ميدان المدينة القديم زرنا دار الاستشارة «راتهوس»، وعلى رصيفه المطل على الميدان نرى فوق الأرض صلباً بعدد أشراف بوهيميا الذين شنقوا في هذا الموضع عقب هزيمة التل الأبيض «١٦٢٠». وبرج الدار تزيقه ساعة فلكية منذ ١٤٩٠، وكلما دقت الساعة افتحت أبواب في أعلى البرج، وتحرك أشباح يمثلون الرسل الاثني عشر وال المسيح. وتلك الساعة ترى منازل الشمس والمقرن وأيام الأعياد وما إليها بدقة غريبة، وفي داخل القصر قبر الجندي المجهول، وحوله باقات الزهر وأطر الحرير مقدم من مختلف الملوك، ولصر باقة حولها الأشرطة الخضراء ممثلة العلم المصري، وفي كنيسة أم المسيح يدفن الفلكي الدانماركي الشهير «تيكو براهاة».

وأبهى شوارع المدينة «فاكلافسكي نامستي»، ومنظره من شرفة المتحف الذي يشرف عليه رائع، وأنواره في الليل تبهر النظر. والمتحف يحوي مجموعة قيمة من النبات والحيوان، على أن المجموعة الأثرية به قليلة، أما باقي المدينة فعادي يشقها النهر وهو يتمايل، وتعبره القناطر التي أشهرها قنطرة كارل، ويطل عليه برج قديم كان له شأن في صد الغيرين عن المدينة، وتتوسط النهر عدة جزائر بها المتزهات، وتصلها القناطر العدة.

على أن المدينة ينقصها كثير من المنشآت كي تُحاكي من المدن أمثال فيينا وبودابست، وكيف تليق بحاضرة دولة ناهضة كبيرة كهذه، ويزمع القوم حفر قناة بجوارها تصل نهر الألب والطونة فتزيد حركة النقل. ويلاحظ النشاط على سكانها، فهم يبدعون العمل

^١ ولنشتين: أعظم قواد ألمانيا في حرب الثلاثين عاماً: جمع جيشاً من المرتزقة وساعد إمبراطور النمسا، بشرط أن تكون له القيادة العليا، ولما عزم نفوذه حقق عليه حتى الإمبراطور نفسه، وأعد مكافأة لمن يقتله، فطعنه جندي أيرلندي من جيشه وأرداه سنة ١٦٣٤.

مبكرين — حتى عمال الحكومة — بنحو ساعتين، ويتأخرن في المساء. وبين الساعة $\frac{1}{2}$ و $\frac{1}{2}$ فتره راحة توقف فيها جميع الأعمال حتى الكنائس.

وبراج تسمى مدينة الشدائى لما مر بها من عصور عصيبة، ويظهر أن تلك المأسى هي التي كونت أخلاقهم التي ستكون خير معوان لهم على بلوغ أوج التقدم. وهم اليوم ناهضون بصناعاتهم بنشاط عجيب، دائمون على ترويج سلعهم في الخارج، وها نحن نرى ذلك في مصر؛ إذ تنتشر مصنوعاتهم الخشبية: كأدوات الموسيقى، ومنسوجاتهم، وبخاصة الصوف والطرابيش التي تقوم مصانعها في مدينة «برون» — عاصمة مرافيا — والجعة التي تزاحم أجود أنواع الدنيا، ومصانعها في «بلزن» من أمهات مدنهم، وإليها تنسب جعة «بلزنر».

كذلك مصانع الجلود والأحذية، وأكبرها مصنع «باتا» المعروف، ثم صناعات الخزف والزجاج. كل ذلك يسير في سبيل التقدم بخطى الجبار، وذلك بفضل نشاطهم وإخلاصهم لوطنهם، ونجاحهم في رفع نير الأجنبي عن كواهلهما، والحق أن الفرق الشاسع بين حالتهم النفسية والإنتاجية قبل الاستقلال وبعده ليؤيد ما للحرية من أثر سحري في الأخذ بناصر الشعوب.

(٢-٨) كارلسbad

ويسمىها القوم اليوم Carlov Vary؛ لأنهم يمقتون الألان والنمساويين، ويتجنبون لغتهم. قمت إليها فوصلتها في أربع ساعات، وكانت مناظر الطريق جميلة؛ فالأرض مغضنة، والحقول منزرعة، وأظهر نباتها حشيشة الدينار Hops.

وبوهيميا تعد أكبر جهات العالم إنتاجاً لها، وتصدرها للممالك الأخرى، وبخاصة ألمانيا لتخمير الجعة. وهذا سر شهرة Pilsen التي لا يباريها في الجعة غيرها، وعيadan النبات كأنها فروع الكروم تقام على شرائح خشبية تُصفُّ في نظام دقيق، على أن ثمنها هذا العام هبط كثيراً بسبب كثرة الإنتاج؛ ولذلك تدهورت حالة الفلاح المالية، خصوصاً وأنها المحصول الرئيسي له، يعقبها في الأهمية الشوفان والشيلم والقمح، ثم الغابات.

ومدينة كارلسbad تقع في وادٍ ضيق تحفه التلال، يكسوها الشجر، ويشقها نهر Teply الصغير — وهو رافد لنهر Eger، ويقاد ماؤه يكون ناضجاً، لكنه في الربيع يمتلىء وقد يفيض على المدينة — وتقوم المباني الأنيقة في درجات فوق بعضها على جوانب الربى في



ينبع «سبرودل» الكبير في كارلسbad والفتیات يملأن منه أکواب المستششفین.

منظر جذاب، ويعبره عدد لا يحصى من القناطر. وغالب سكان المدينة أغраб من طالبي الاستشفاء.

والمدينة تحمل اسم منشئها شارل الرابع «حمام شارل»، وفي أفاصيصهم أن الإمبراطور خرج للصيد يوماً، فتبعد كلبُ له وعَلاً، فقفز الوعل من قمة ربوة ونزل في الوادي، فسارع الكلب وراءه، لكنه سرعان ما أخذ يعوي عواء مِّراً استرعى نظر سيده، فلما أتاه ألفاه قد احترق بمياه نبع فوار اتخذ شارل حماماً فيما بعده.

وبنابيع المدينة عديدة، ويختلف ماؤها في الحرارة والمركبات المعdenية، على أن صبغتها قلوية في الجملة. وأكثر مواردها شيوعاً سلفات الصودة وكربوناتها وكلوراتها، وأعلى حرارتها 73°م في اليابون العظيم Sprudel، وهو يقذف من مائه نحو ألفي لتر في الدقيقة — ٢,٩ مليون يومياً، ١٨ ألف كيلو من الأملاح الذائبة — وهو يمون جميع الحمامات هناك، ويصدر منه سنوياً أربعة ملايين من الزجاجات؛ أي نحو محصول يوم

ونصف، ويشرب القوم نحو ٢٣٥٠٠ كوب يومياً، ويستخرج منه مائة ألف كيلو من الملح المسمى باسمه سنوياً، وهو يصعد كل ساعة ٢٥٠ كيلوجراماً من غاز الكربونيك. وهناك من الينابيع عشرة أقل من هذا أهمية. ومنظر سبرودل مدهش؛ فهو يدفع بالماء إلى علو يناهز عشرة الأمتار في رشاش وانفجارات وغازات. ومياه تلك الينابيع تشفى المرضى بالمعدة والأمعاء والكبد، والتreatment الغذائي، والمجاري البولية والروماتيزم. وكل يروقك منظر القوم وهم يتزاحمون كلّ يمسك بكوبه ويملؤه من الينبوع الذي وصفه له الطبيب. وهم يتناولون الماء جرعة جرعة، ويمشون ذهاباً وجيئة على اختلاف أجناسهم وأعمارهم.

ويبلغ عدد من يُمضي زمن الاستشفاء بها سبعين ألفاً، ومن يزورها مروراً مائتي ألف؛ ولذلك ليس بعجب أن ترى المتنزهات دور الملاهي والأنزال ووسائل النعيم منتشرة، وقد عبد القوم طرقاً متلوية خلال الربي طولها نحو ١٢٠ كيلومتراً، فالملاذ من حولها شعرية ساحرة تغري الزائر بطول المقام، ولو لم تكن به حاجة للاستشفاء.

(٩) ألمانيا: بلاد الفخامة والنظام

قمت من براج الساعة الثالثة مساء، فوصلت درسدن السابعة مساء، وكان الجو غائماً، وكلما تقدم القطار زالت كثافة السحب، وسح المطر، وصار وبلا، والسماء ترعد وتبرق في شدة غير عادية، وبخاصة عندما قاربنا السفح الجنوبي لجبل «أرزجبرج»، وكنا نعلو تدريجاً، ويزيد تعقيد الجبال وتكثر الأتفاق. ولما أن اجتازنا الجبال أخذت السهول تنفسح، والسحب تنقطع، وظهرت الشمس.

وأخيراً دخلنا درسدن التي بدت خفيفة الروح نظيفة، ويسهل تتبعها على المصور، وهي تقع على نهر الألب، وغالبها على الضفة اليسرى، وأعظم شوارعها رونقاً وحركة Prager، وامتداده Schloss، وبه معظم المتاجر. وخير ما زرت بها: القصر الملكي، وهو على نظم قصور القرون الوسطى، ممتد الأجنحة، مشرف للأبراج، وبه في الدور الأسفل متحف للمجوهرات والتحف والمخلفات الملكية الثمينة.

وفي الدور الثالث الأعلى مسكن الملوك، وحجرات القصر وأبهاؤه في امتداد وعظمة تبهر النظر، ونقوشها تدل على ما كان للملوك من صولة وسلطان، وبالحجرات أثاثها، من بينه سرير غليوم ومكتبه ودولابه. ومن القصر يمتد طريق معلق على شكل قنطرة



مدينة درسدن عند منعطف نهر ألب.

تصله بالكنيسة الفخمة التي تشرف على النهر عند قنطرة «أوجسطس»، وإلى وراء القصر متنزه بديع الشكل تحيط به أبنية فخمة بشرفات ودرج فاخرة يصعدها الإنسان؛ فتؤدي به إلى دورها الأعلى، وكله ممشى للتنزه ينتهي بقباب وأعمدة فخمة، واسم هذا المكان الساحر Swinger، وفي أحد جانبيه المتحف الفني، وبه مجموعة مدهشة لكتاب المصورين شخص بالذكر منهم: رفائيلو، روبينز، فاندليك.

ومعروضاته كثيرة العدد بحيث تملأ طبقاته الثلاث، وهو معدود من متاحف الفن الكبرى في العالم. ويظهر أن هواة الفن والتصوير كثيرون هناك؛ لأنك لا تكاد تدخل غرفة إلا وتجد بها مصوراً أو اثنين ينقلون على لوحتهم ما راقهم من آيات الفن القديم، وثم متنزه تجاه الكنيسة من الجانب الآخر يسمى Belvedère، إذا علوت مسارحه بدت لك المدينة على النهر المتلوى ومبانيها على جانبيه في مشهد رائع، وبه عدة حدائق ومنتزهات ومقهى كبير، وتشرف عليه دار العلم «أكاديمي» في أبهة البناء وفخامته، وخلفه متحف الحفر، وبه مجموعة لا بأس بها من النصب التي نحتت في مختلف العصور، وفيه جانب

مصري صغير جدًا. قضيت في تلك المدينة النظيفة يومين كاملين تمنت خالهما بجو جميل، ومناظر جذابة، ثم قصدت إلى:

(١٩) ميسن

التي وصلتها في ساعة، وهناك ركبت تراماً إلى مصنع الخزف ذات الصيت الذي ينتج خزف سكسونيا، الذي لا يخلو منه سماط فاخر قط. دخلته واقتادنا أحد رجاله شارحاً، فمررنا في الطابق الأسفل على مجاهز العجينة التي تعد من مادتي: الكولين والفالسبار لعمل الخزف الرخيص، ومادتي الكولين والكوارتر للخزف الثمين. وتلك المواد تستمد من الجبال النارية القديمة المجانية للمصنع.

وهناك ترى الرجال يديرون دواليب بالأرجل شبيهة بتلك التي تراها في قنا، ويمسك الواحد بالعجينة ويشكلها بيده أو بسكن معه كييفما أراد، وبمهارة فائقة، وبعضهم يضع العجينة في وسط قوالب من الجص، ثم توضع حولها حلقات غلاظ من الفخار السميك الصقيل، وترص في الأفران التي تُحْمِي إلى درجة ألف مئوية، والأفران يطلي داخلها بدهان براق.

أما النّقش والزخرفة ففي الطابق الثاني، وهنا يرى الإنسان عجباً، فالرجل أو الأنثى تمسك بالطبق أو الكأس وتطبع عليه تحديد الرسم، وتملاً فراغه بريشتها في إتقان يثير الدهشة. ومن الأشكال التي كانت تتم في دقائق ما يعجز المفنون المبدع أن ينجزها في ساعات. والمواد الملونة من مادة الكوبالت الأزرق، وبعد إتمام ذلك يغمر الإناء في السائل الصقيل كي يصبح ناعم الملمس.

وثم قسم للحفر تشكل فيه التمثال على اختلافها، والزهور وما إليها بالأيدي في دقة عظيمة بلغت أن كان الرجل ينقش أمامنا رقائق من الجص مخرمة تحكي «الدانتلا». ويزوغ البصر إذا انتقل المرء إلى قسم المعروضات حين ترى نماذج من الآيات التي ينتجها المصنع من تماثيل للحيوانات جميعها، وبعض الأشخاص في مختلف حركاتهم، وأنية ترى لأنها مرصعة تزيينها الصور الفنية البدعة؛ مما يشهد للقوم بالفضل العظيم في هذا النوع الذي أكسبهم قصب السبق في ميدان المنافسة. وقد فقدنا المعرض وحده في ساعة ونصف.



أكبر مصانع الخزف في العالم: ميسن سكسونيا.

أما المدينة نفسها فصغريرة، لكنها تفوق بندراً من بنادرنا في ضخامة الأبنية، ونظافة الشوارع، وتنسيق المتنزهات، وعجب أن تعلق الجرائد اليومية في مركبات الترام كي يتصفحها الركاب.

قمت إلى برلين الساعة الثالثة مساء، فوصلتها الساعة السادسة إلا قليلاً، وكانت المناظر في الطريق كلها سهولاً ممتدة تكسوها الخضراء إلا حيث ترى الغلال بيضاء يحصدتها القوم، وبخاصة الشوفان، ولا تخلو تلك السهول من الغابات المتناثرة.

(٢٩) برلين

في صباح الجمعة ١٨ يوليه، قصدت شارع المدينة الممتاز «إنتردن لندن»، وبدأت بزيارة القصر الملكي الذي يقع في آخره، وهو قسمان: حديث وقديم، فالحديث أقيم منذ القرن الثامن عشر، وهو فخم لحد كبير، به غرف وأبهاء للقياصرة، ومن بينها عرش غليوم، والغرفة التي خاطب الشعب منها عند إعلان الحرب سنة ١٩١٤، وصور زيتية كبيرة للملوك جميعاً، وفي مقدمتهم فريديريك^٢ الأكبر على جواده، وهو يتجه إليك بوجهه من أي جهة تنظر إليه. وهذا القسم كان من الفضة الخالصة حتى العرش والشرفات «البلكونات» والمقاعد، لكن فريديريك صهر كل ذلك وسَكَّ نقوذاً لما أعزه المال في حرب السنين السبع، ولا تزال منه بقية في مقعدين وشرفه من الفضة البيضاء، وبعض الحجرات تتکسی جدرانها ببسط من صنع مهرا الهوغنوت.

والقسم القديم أقل فخامة، راقتني به صورة لأولاد فريديريك يعزفون على الموسيقى خلسة؛ لأن أباهم كان يقسوا عليهم، ويعذبهم ذلك، وبالقصر سبعمائة حجرة، وأربعين طوابق، وألف نافذة، وفي دوره الأسفل متحف لخلفات الملوك من هدايا وأثاث. والقصر يطل على نهر سبرى الصغير، فرع الألب، الذي تقع عليه برلين، وتعبره القناطر العديدة في مقدمتها قنطرة القصر، وقنطرة فريديريك، وعندما كنيسة الدوم، أفحمر كنائس برلين، قبتها الأنثقة تناطح السحاب، وهي ذات نقوش فنية بدعة، بهوها يتسع لخمسة آلاف جالس، وتطل عليها شرفة خصصت للقيصر نفسه يؤدي فيها الصلاة، ولها سلم فخم خاص به وخلفها يقع مدفن القياصرة، وبه تحفظ رفات مائة من آل هوهنزوليرن، من بينهم فريديريك الأول.

ثم زرت متحف «القديم والحديث»، وخیر ما راقني به القسم المصري، وبه قطع عديدة نفيسة أخص منها تمثلاً من الجرانيت الأسود الصقيل لرمسيس الأكبر، وأخر لسيزستريس الأول وهما جالسان، ونماذج لأنواع للنسج بكامل أدواتها، وبعض الآلات والأسلحة، وأضرحة كاملة، وجثث محنطة بعضها ممددة، وبعض مطبوق الأرجل إلى

^٢ فريديريك الأكبر بطل القرن الثامن عشر، أصلاح شئون بلاده، ثم وجه همه إلى التوسيع في الخارج، وكان عبقرياً في الحروب حتى كان يعجب به نابليون فيما بعد، ويحمل تمثلاً له أينما سار. والحق أنه رفع ألمانيا إلى مصاف الدول العظمى.



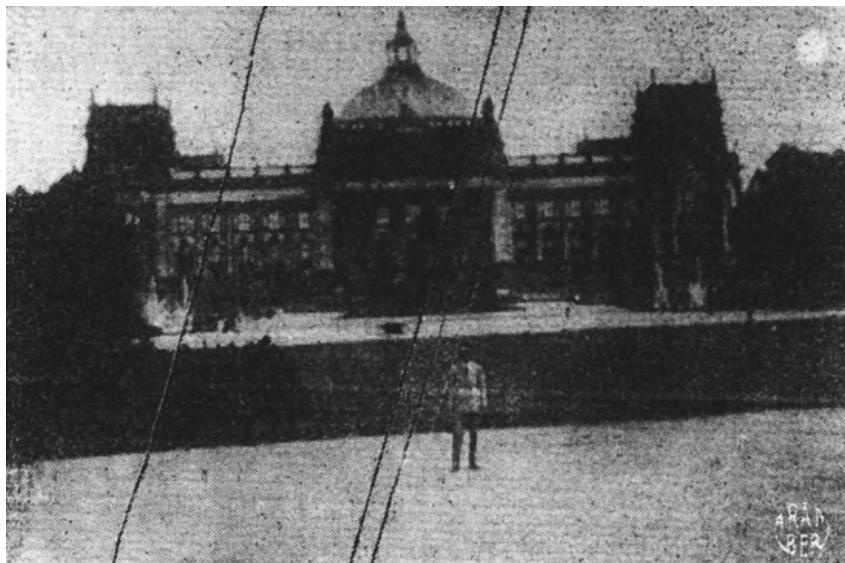
جهاز زايس لتبسيط علم الفلك في برلين.

الصدر من ٣٥٠٠ ق.م، وبعضاً منها موضوع في قبره، ومن بينها ضريح مطعّم بالأبنوس والعاج غایة في الإبداع والدقة.

وهناك رأس نفرتيتي — منذ سنة ١٣٧٠ ق.م — المتنازع عليها بوجهها الدقيق، ورقبتها النحيلة، وعيونها السحرية. وقد عمل منها عدة نماذج من الجص، وخبرنا الحارس أنها على وشك أن ترسل لمصر، والمتحف غاًص بقطع قيمة لا حصر لها. وبه قسم إغريقي من «أتيكا»، وخير ما به أوان فخارية حمراء صقيلة، وعليها نقوش بد菊花، وإن كان بعضها خارجاً عن حد اللياقة والأدب.

ومن معارض الفن الشهيرة: المعرض الأهلي، وبه مجموعة لصور فنية من مختلف العصور، ثم متحف «القيصر فريديريك»، وفي دوره الأعلى تحف فنية كثيرة لكتاب المصورين، وأجملهم في نظري روبينز، وفي دوره الأسفل مجموعة تماثيل وأوانٍ وقطع

من خزف، وبه قسم قبطي مصري يحوي مجموعة أنسجة قيمة، ومحراباً قبطياً من دمشق، وتماثيل وواجهات من خرت الخشب عليها المسيح والقديسون.



أمام الريشستاغ «البرلمان» برلين.

وثم قسم إسلامي بالقيشاني، والآيات القرآنية، وطنافس ومحاريب كاملة، وأبواب وجدران من خرت الخشب بكمال نقوشها، ثم أنسجة جميلة من عهد هارون الرشيد، وعليها الخط الكوفي الجميل، وأخرى لخلفاء غيره، وأقمشة موشاة بالذهب مزركشة بمختلف الألوان. هذا وأبنية المتاحف تبهر النظر في فخامتها وعظيم امتدادها. والحق أن أول أثر لبرلين ينطبع في نفس الزائر دألاً على عظمتها وتراث أهلها: ضخامة مبنيها، وسعة شوارعها وامتدادها الرائع في استقامة واحدة، وفوق ذلك نظافتها التامة، فلمجرد جولة يثبت أنها عظيمة. أهلها أهل نشاط وعمل ونظام ودقة ونظافة: بلغ من دقتهن أن أسماء الشوارع تكتب على لوحات مستطيلة، تقام على عمود في زوايا الطرق وعليها أرقام البيوت التي في هذا القسم من الشارع، وسهم يدل على الاتجاه، وعند مواقف

سيارات الأمينيوبس تعلق خرائط لخطوط سيرها تبدو واضحة في النهار، وتضاء من داخلها ليلاً. أضف إلى ذلك البوليس الهيب المثقف الذي يخاطبك بأكثر من لغة واحدة، ويجيئك في رفق وتوءدة، ويهديك إلى طلبتك كائنة ما كانت.

وهذا كله ملاحظ فيسائر البلد الألماني؛ ولذلك فإني أعد ألمانيا خير بلاد أوروبا جميئاً في الدقة والنظافة والنظام والمظهر العظيم، وقد جمعت بين الكد وراء العمل والإسراف في اللهو مما لم يتوافر في بلاد أخرى.

قصدت إلى مكان أسموه Planetarium نسبة إلى الأجرام السماوية السيارة، وهو مؤلف من قبة ضخمة صفت داخلها المقادع للمستمعين، وتتوسطها آلة معقدة، ومؤلفة من جملة عدسات تظهر فيها كل الأجرام السماوية مشرقة، سواء على حدة أو في جموع النجوم والشمس، كل يدور أمامك في فلكه بنسبته الفلكية الصادقة، والرجل خلال ذلك يشرح لنا ما نرى مشيراً بسهم من ضوء يتحرك في أرجاء القبة حيث يشاء، والجهاز يعد من أكبر المبتدعات لتبسيط علم الفلك، وسرعة تصور مدارات الأجرام بعضها بالنسبة البعض، وهو من مبتكرات «زايس» صاحب الشهرة في الأجهزة الإبصارية. وقد حذت حذوه سائر المائن الأوروبيّة الكبرى، وأنشأت أمثاله ليفيد الطلبة وال العامة على تفهم معميات الحركات السماوية الغامضة.

وخير متزهات المدينة وأفسحها Treptow و Tiergarten، تنمق فيما الزهور ونقائع المياه ومجاريها، ويكثر الشجر الكثيف حتى ليخيل إليك أنك تسير في غابة هذب مسالكها. ووسط الأول المرصد، وبه معرض لآلات الرصد وتطورها، وأجهزة فلكية عده، وكثير من الشهب حجم أكبرها يناهز نصف المتر، وبه منظار هالني امتداده، وقد قيل لي: إنه أكبر ما وجد، قطره ٦٥ سم، وطوله ٢١ متراً، وقد رسم الراصدون بواسطته كثيراً من الأجرام السماوية.

ويؤدي المتنزه الثاني إلى ميدان الملوك الفخم يشرف عليه البرلان في بنائه الأنيق الفاخر، الذي نقش عليه ما معناه «إلى الشعب الألماني»، وأمامه تمثال لبسمارك، أكبر دهاء ساستهم، ويواجهه وسط الميدان عمود النصر يصعد الإنسان بمائتين وخمسين سلماً، فيمر بشرفة شاسعة نقشت جدرانها بالفسيفاس البديع، وتتووج العمود سيدة بأجنحة وصولاجان، وتأج مرتفع من زهر، وحول جدرانه السفلی نقوش نحاسية لوقائع تاريخية، وأقيم تذكاراً للنصر في حرب السبعين؛ ولذلك نقش عليه ما معناه «من الوطن الشكور إلى الجيش المنتصر هنا».

وتبدو برلين من ذروته في عظمة وجلال، وقد أصر الحلفاء، خصوصاً فرنسا، على هدمه في معاهدة فرساي، لكن الألمان رفضوا ذلك في إباء. وحول الميدان تماثيل لجميع القياصرة بجانبهم كبار الساسة، أمثال مولتكه، ومنه يصل المرء إلى بوابة «برندنبرج» على نمط إغريقي ضخم تتوجها عربة تجرها أربعة جياد عرضها ٦٨ يارد، وعلوها ٢٢ أقيمت سنة ١٧٨٩ لتحكي بوابة باريس، وأمامها ميدان بالرخام الناصع، والناقوسات الجميلة، والتماثيل الدقيقة، وامتداده يؤدي إلى شارع إنترن لندن الشهير، ويقطعه في وسطه ثاني طريق في الأهمية «فريديريك شتراس»، وتمتد قصوره الفاخرة إلى قصاري مساحات النظر في استقامة رائعة إلى الأفق حيث يخيل إليك أنه لا نهائي.

وفي تلك المنطقة تقع أضخم مباني برلين من قصور ملكية، ومتحاف ومعارض فنية، والأوبرا التي تسع ١٩٠٠ شخص، وهي ذات نقش رائع، وفي إسراف كبير، وكذلك دار الجامعة، وأمامها أبدع تماثيل المدينة لفريديريك الأكبر.

حديقة الحيوان

متaramية الأطراف بها مجاميع كبيرة من مختلف الحيوان، وأحسن ما راقني بها الحظائر التي أقيمت في هندسة متباعدة تحكي هندسة البلاد التي يقطنها الحيوان الذي فيها، فمثلاً أقيم بيت النعام وفصائله على نمط مصرى قديم، والظباء والإبل على نمط عربي صميم، والفيلة على نمط هندي يحكي «الباجودا»، والطيور طويلة الأرجل على نمط ياباني وهكذا، وبالحديقة من المقاهي وجواSQS الموسيقى الشيء الكثير، على أن حديقة القاهرة تفوقها تنسيقاً واتساعاً، فحديقتنا إذن أجمل حدائق الدنيا جميعاً.

وبجانب الحديقة قسم للأسماك «أكواريوم» يقال: إنه أكبر ما وجد في الدنيا، وهو ثلاثة أجزاء، في الدور الأرضي تعرض الأسماك على اختلاف فصائلها، بما فيها الأصداف عجيبة الألوان والأشكال من كافة بحار العالم، وفي الدور الثاني Terrarium، ويشمل فصائل الحيوان الذي يشتهر بين البحر والبر، غالبه من الضفادع والسلحف والأفاعي، وفي الدور الثالث دار الحشرات Insectarium، واسترعى نظري به عنكبوت أكبر من راحة اليد مرسومة، وأخر ذو أهداب غزيرة كالشعر، وشعبان كأنه البساط الجميل النعش قطره قدم، وهو بالغ الطول جيء به من الأمازون.

وبجانب الحديقة حظيرة بها ألف تمساح في مختلف الأحجام والأعمار، وبجانبها بعض السلاحف الكبيرة، وكان بعض السيدات يمتطينها، وتمشي بهن مسافات طويلة.

ومن المتاحف القيمة متحف الشعوب، ويحوي مجموعة نادرة المثال من مخلفات سكان آسيا، بين تماثيل وحوائط وأسلحة وأنسجة في الطابق الأسفل، تعلوه معرضات أمريكا الوسطى والشمالية والجنوبية، ومن بينها مخلفات مدينة الأزاتقة والأنكا، وفي الطابق الثالث مجموعة قيمة من أفريقيا — الشمال والوسط والغرب والجنوب كل على حدة — ثم أوشيانيا. وأعجبتني كثيراً مخلفات ميكرونيزيا، وبخاصة نظام المساكن وهندستها ونظافتها، وكذلك دقة الأنسجة من الألياف النباتية، وجداول الخوص في تأنيق عجيب، وهو الوحيد من نوعه في العالم، ويقوم في بناء فخم للغاية.

ومن الأشياء الجديرة بالزيارة برج برلين على نمط برج إيفل، لكنه أصغر قليلاً، أقيم من الحديد، وله سلم ومصعد كهربائي يعلو إلى ١٢٠ متراً، فيرى منظر المدينة وضواحيها في تخطيط هندي جذاب كأنه خريطة يدوية، ويرى الناس كالدبيبات، وهو يتوسط متنزهاً ومقهى عظيم الامتداد يؤمنه خلق كثير لسماع الموسيقى الشجيبة. والحي كله حديث طرقه فسيحة مبعثرة المباني نادرة السكان.

مسجد برلين

في ناحية من شارع فخم اسمه «هوهنزلرن» يتوسطه متنزه جميل على طول امتداده، والمسجد في هندسة مغولية كأنه تاج محل مكون من قبة كبيرة حولها القباب الصغيرة، وأمامها متنزنتان دققتان جداً، وبجواره منزل صغير جميل للإمام عبد الله، وتعلق عليه لوحة لنشر الإعلانات والمنشورات الدينية بإمضاء الإمام، وتتووجهها البسمة باللغة العربية، والباقي بالألمانية، أقامته جمعية نشر الإسلام الهندية باكتتابات ٩٠٪ منها من الهنود، خصوصاً أهل بنجاب.

وقد بدء البناء سنة ١٩٢٤، لكن اضطراب سعر المارك أوقف العمل، وتم سنة ١٩٢٧ وهو منقوش من الداخل نقشاً لا يأس بها، ولا يزال تنقصه الفرش، وبلغت أكلافه أربعة آلاف جنيه، والإمام شاب هندي نحيف أسمر وسيم ذو لحية خفيفة سوداء براقة الشعر، يجيد الإنجليزية، ويعرف قليلاً من العربية، وبجهوده ومجاهد سائر أعضاء الجمعية الإسلامية ببرلين — تلك التي يرأسها دكتور في الفلسفة الألماني الأصل — تنشر الكتب والمقالات، وتظهر مجلة شهرية، وتتقى المحاضرات في المسجد. وقد اعتنق الإسلام من أهل برلين نحو الأربعين بينهم دكتوران، ولم تساعدهم الحكومة الألمانية قط، بل كانت تلزمهم دفع ضريبة على المسجد، ولم يُعفوا منها إلا السنة الماضية بعد جهد كبير.

(٣-٩) يوم بوتسدام

أصبح الجو جميلاً مشمساً على غير ما عودنا في ألمانيا؛ إذ كان طوال إقامتي بارداً رطباً كثير الأمطار، فكان ذلك خيراً معيناً لي على الاستمتاع بضاحية بوتسدام التي تحكي فرساي في باريس، مذ كانت الوطن الأول لمنتخبى برندنبرج أولاً وللوك بروسيا آخرًا، وقد زاد صيتها عهد المنتخب الأكبر، ثم بلغ الأوج عهد فريديريك الأكبر، وساعد على هذا التجميل كثرة البحيرات والجداول المثلوية، التي تتفرع من مجرى Havel، وكذلك كثرة الغابات.



قصر سانسوسي في بوتسدام بألمانيا.

والمدينة تضم الآن ٦٥ ألف نسمة سلكت في سبيلي إليها قطار المترو من محطة ZOO إلى بلدة Vann See bahnhof، فوصلتها في نصف ساعة، ومنها أقلي زورق بخاري أخذ يجوب بي نواحي بحيرة متلوية، ويرسو على محاطها الساحرة إلى بوتسدام التي وصلتها في ساعة وربع، فكانت هذه رحلة مائية غاية في الإبداع. وهنا سرت إلى القصر الأول، فبدا عظيم الامتداد تخرج منه الأبهاء ذوات العمد الرائعة، يتقدمه ميدان فسيح يؤدي إلى غابة كبيرة، وخير حجراته غرفة المطالعة لفريديريك الأكبر، وبها كثير من مخطوطاته، وإذا

أغلق الباب والنواخذ لا يكاد يتعرفها من يكون في داخلها؛ لتشابه نقوشها من الداخل، وحجرة فريديريك وليم الثالث، وزوجته لويس، ثم حجرة البرنز البراقة. أدى بي السير إلى متنزه سانسوسى الدائع الصيت، ومعناه «بغير سأم»؛ وأنّى لي أن أصف ما حوى من آيات التنسيق في الزهور وبدائع الفن في الأنصاب والنافورات، وإتقان الذوق في المقصاصير. ولليات الطرق تحفها التماشيل وإبداع تشذيب الشجر.

بدت عند المدخل مسلطان صغيرتان يؤدي الطريق داخلهما إلى قصر سانسوسى، الذي يشرف على متنزه أنيق يؤدي إلى نافورة كبيرة تغص بالسمك الأحمر، ثم إلى مدرجات ستة يعلو الواحد منها الآخر بثلاثة وعشرين سلماً، حولها من عيون الماء وبواسق الشجر وأكمام الزهر ما يعجز عن وصفه البيان.



مكتب فريديريك الأكبر بقصر سانسوسى.

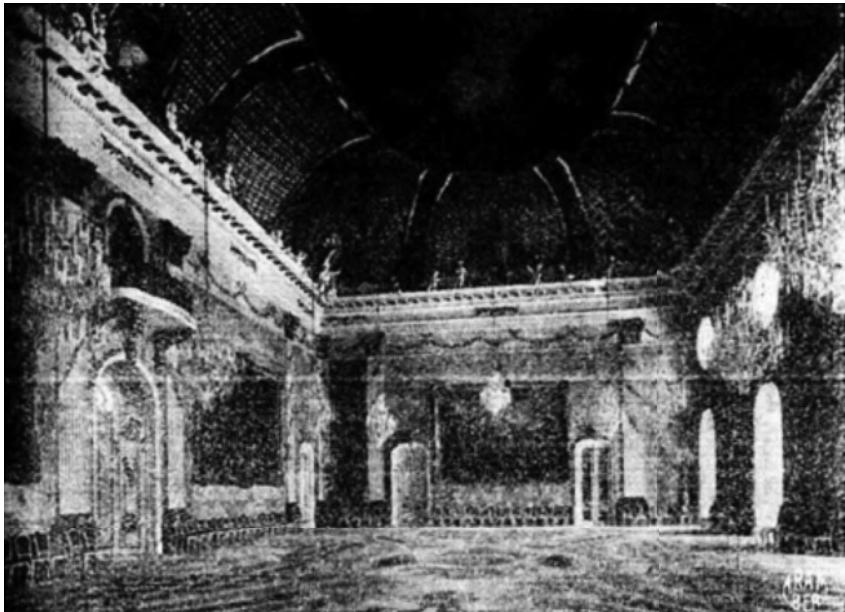
والقصر من طابق واحد، أجمل حجراته غرفة فولتير، صديق فريدريك الأكبر، الذي دعاه للإقامة عنده، وهي بخرط الخشب في أشكال مختلفة من حيوان ونبات. وبهذا الطعام الإهليجي الذي عقدت به وليمة المائدة المستدير الشهيرة بدعوة من فريدريك الأكبر، ثم حجرات فريدريك نفسه وسريره الذي مات فيه، وبجانبه ساعته التي كان يملؤها بنفسه، والتي وقفت ساعة وفاته تماماً، وكانت الثانية والدقيقة العشرين من صباح ١٧٨٦ أغسطس سنة، وبالقصر مكتبة القيمة التي تحوي مجموعة قيمة من مؤلفات غالباً فرنسيّة.

وفي الثلث الثاني من الطريق الرئيسي القصر الثاني المسمى «أورانجري»، لكثره أشجار البرتقال من حوله، وقد بُني على نمط هولندي، وهو أقل فخامة من الأول، وبجانبه ترى أطلال الخزانات التي كانت تسقي المكان كله، والطاحونة الهوائية التاريخية التي كانت لفقير أبي أن يبيعها لفريدريك، رغم توعده إياه، مخافة أن تشوه منظر قصوره، لكن الرجل رفض ذلك قائلاً: لن يقع حيف ما دام في برلين قضاة، فأعجب به وتركها له، وبعد هذه بقليل هيكل قديم على شكل قبة البانثيون، ودفنت به رفات القيصرة الأخيرة زوج غليوم في تابوت من الرخام.

وقرب آخر الطريق القصر الحديث، وهو مستطيل تتوسطه قبة عظيمة، وتتقدمه حديقة أبدع تنسيقها، تُزيّنُها التماشيل، بناه فريديريك الأكبر سنة ١٧٦٣ لإظهار عظمة بروسيا بعد حرب السنتين السابعتين، وكان يستخدمه لإقامة الحفلات الرسمية، واتخذه غليوم مصطفاً له، وبه ٢٠٠ غرفة، ومسرح للتمثيل يتسع لفانوأه لخمسمائة نفس، وأهم حجراته ردّه المرمر بدعة النّقش، والمدخل الذي ترصف جدرانه جميعها بالأصداف الثمينة في أشكال مدهشة، وحجرة الموسيقى — وقد حفرت آلات الطرب على جدرانها بالذهب، وكان فريديريك ولوغاً «بالفلوت».

وكذلك الحجرات التي كانت خاصة بغليوم نقشت بالفضة والذهب الخالص. والقصر في نقشه الداخلي يفوق جميع ما شاهدته حتى في فرساي نفسها، ويدفن فريديريك الأكبر وأبوه في كنيسة سانسوسى تظللها أعلام النصر التى غنموها فى حروبهم.

رغبت في أن اطلع على بعض ملاهي القوم، فزرت Haus Watterland في «بوتسدام ريلاتس» ليلاً، فإذا به جنة نادرة، فمن ثريات الأنوار تصنفُ في أشكال تبهر النظر إلى طلاء ونقوش فوق الجدران في إبداع دونه أي إبداع. والمكان مقسم إلى أبهاء عدّة كل بهو على نمط خاص في هندسته ونقوشه وأثاثه وأهله، فمثلاً ترى حزءاً من بلاد الرين بحالها



ردهة الودع والمرمر بالقصر الحديث في بوتسدام.

وتصورها وغاباتها تضاء، ويبعد القمر والنجوم في سمائها، ثم يظلم الجو تدريجًا، وينذر ب العاصفة لا تثبت أن تثور فتبرق السماء وترعد، ويُثقل السحاب وينزل مطره وأبلاً، ثم تنقشع العاصفة ويعود الصفاء، ثم بهو تركي ترى جدرانه بخرط الخشب العربي، والمسابح من النحاس المثقب، والمقاعد الخشبية العريضة.

وهو يطل على البسفور، وتبدو إسطنبول بمبانيها وأنوارها وماذنها، وأخر يمثل كولبيا تسمع فيه موسيقاهما، وترى مراقصها، ورابع إغريقي. وترص وسط تلك الأبهاء مناضد يجلس عليها الزوار ليتناولوا ما لذ لهم من طعام وشراب، يُقدم إليهم في آنية البلاد نفسها، وبأيدي طائفة من الخدم يلبسون أردية البقاع التي يمثونها.

وعلى أثر عودتي من دانماركة، قمت من كوبنهاجن إلى همبرج — سافرت بقطار ١٠ صباحاً فوصلتهاها ٩ مساءً — وتعددت وسائل النقل بين قاطرات وسابحات عدة مرات، ومررنا على مدينة لوبك على البلطيق، وتحكي بندراً من بنادرنا. أما همبرج فبلدة ضخمة

المباني، ممتدة الطرق نظيفتها، يدخل البحر إليها بأسن متعددة الشعاب، تعبيرها القناطر الجميلة، وأضخم مبانيها دار البلدية «راتهوس» شيدت من الصخر الرملي المزركش في هندسة النهضة الألمانية. وأقدم أحياي المدينة ترجع إلى سنة ٨٠٠ حين بدأها شارلمان، وطريقه مختنقة لكنها نظيفة شأن جميع البلاد الألمانية.

أما الميناء فعظيم الحركة، مشعب الفروع، يصب عنده نهر الألب، وهو الشريان التجاري لألمانيا، وفيما عدا عظمة مبانيها وفضاءاتها وامتداد طرقيها، لا يلذ للمرء المقام بها، خصوصاً وأن المعيشة بها غالبة لا تطاق، فمستواها أعلى منه في أية بلدة ألمانية أخرى.

(٤-٩) كولوني

بعد انتهاء زيارتي لهولنديه، آثرت أن أسلك سبيلاً إلى أعلى الرين، فقمت من روتردام بقطار الثانية مساء، ووصلت كولوني الثامنة مساء، ويسمىها القوم Külن بإمالة الكاف، بلدة تاريخية عتيقة يرجع عهدها إلى زمن نيزون الروماني، وإن لم يبق للروماني هناك من أثر إلا الاسم، وهو محرف عن Colony: أي مستعمرة.

كولوني اليوم ثالثة مدن ألمانيا، بعد برلين وهمبرج، وعدد سكانها يناهز ثلاثة أرباع المليون، ٧٦٪ منهم من الكاثوليك؛ ولذلك ليس بعجب أن ترى بها نحو مائة كنيسة كاثوليكية، وفي مقدمتها كنيسة Dom الذائعة الصيت، وتقام في هندسة قوطية تبهر النظر مجرد رؤيتها. وأنذر أني وقفت أمامها صامتاً ذاهلاً من عظمة ما رأيت من آيات الحفر والنقش، وكفى أنها استلزمت أربعين عاماً حتى تم بناؤها. ووضع الحجر الأساسي سنة ١٢٤٨، وعلو برجيها ٥١٨ قدماً، بكل سبعه أجراس زنة أكبرها ٢٧ طناً، ويتسع فناؤها لأربعة وعشرين ألفاً، وتعد من معجزات فن العمارة القوطية في العالم أجمع.

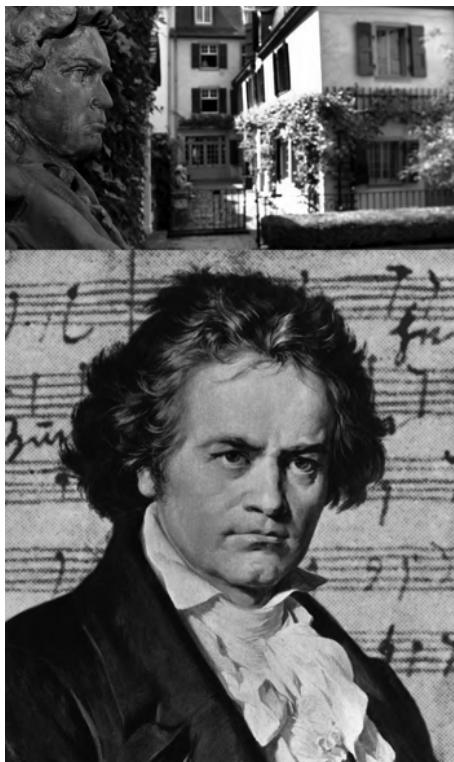
وهي وحدها تبرر زيارة المدينة من أقصى الأرض. يواجهها المرء مجرد خروجه من المحطة الرئيسية، فتعطي عن المدينة فكرة رائعة. وبالددينة عدد كبير من الكنائس الفخمة في هندسة الرومانسيك الألمانية البحتة، وهناك عدد كبير من المتاحف أشهرها الجالاري، وغالب طرقيها عظيمة الامتداد، غاصة بالحركة. وكانت الأحياء القديمة تحاط بسور كالهلال تتخلله بوابات تحكي باب النصر عندنا، ولا تزال لها اليوم بقية.

والرين هناك عظيم الاتساع تعبره القناطر الفخمة، ومن بينها أكبر قنطرة معلقة في أوروبا جميعها، وجاء من النهر كبير أعد بالأهوسنة والروافاع، فأضحتى مرفاً تجارياً



واجهة كنيسة الدوم في كولوني.

عظيماً. والجامعة تشرف على النهر، وينتسب إليها ستة آلاف طالب. وقد طغى الريان على المدينة سنة ١٩٢٦ فأغرق كثيراً منها. ولعل أجمل جهاتها القديمة سوق الخضر الفسيح، كثير الضوضاء، وعظيم الحركة، وبالمدينة شارع خاص بالبنوك، وأخر ب الرجال القانون. هذا وإن انحلال الأخلاق الذي أعقب الحرب الكبرى، ولم تنج منه دولة أوروبية، ليبدو جلياً في ألمانيا، وبخاصة في كولوني. ويظهر أن الحالة زادت سوءاً بسبب الاحتلال الأجنبي إلى السنة الماضية، فالنساء هناك مبتذلات إلى حد مخجل: لا يتورعن أن يمسكن بتلابيب المارة في غير حياء، وعجب أن تجمع ألمانيا بين النقضين: عظمة العمل وتدھور الخلق هكذا؛ ولذلك ليس بعجب أن نرى عقلاً القوم ناقمين على الحالة السياسية الحاضرة، ويرون أن عصر الجمهورية أسوأ حالاً من سالفه؛ إذ سهل للناس سبل الفساد، ومهد لتلك الإباحية المقوته، فكان الانحلال الخلقي؛ لذلك فهم يتوقعون لرجوع الإمبراطورية. أما حالة القوم المالية فشديدة تبدو في كثرة المسؤولين والفقرا، وهم يجرؤون وراء كسب عيشهم في كد ونصب فاق كل حد.



بيتهوفن إمام الموسيقى ومسكنه الصغير.

ومن ضواحي المدينة الجديرة بالزيارة Bonn، التي وصلتها بالترايم في ساعة. سكانها تسعون ألفاً من بينهم كثير من طلاب العلم الأجانب ينتسبون لجامعتها، وهي أشبه ببلاد المصايف لكثرة منازلها وفلاتها ومناظرها الرائعة، وقد دفعني لزيارتها أنها مسقط رأس الموسيقي الذايuch الصيت «بيتهوفن»، وقد زرت بيته الصغير وبجانبه متحف لخلفاته، ووسط ميدانها يقوم تمثاله، ومن خلف المدينة سبعة تلال ذات مناظر ساحرة. وفي ظني أنها سر إظهار عبرية هذا المفنون العظيم.

(٥-٩) إلى ميونخ

قمت من كولوني التاسعة صباحاً، فوصلت ميونخ التاسعة والنصف مساءً؛ أي بعد نحو $\frac{1}{2}$ ساعة، وكان الطريق الحديدي يجانب الرين الذي كان يتلوى يمنة ويسرة، ومن حوله الربي الجبلية تكسوها الخضراء، وترصف جدرانه كلها، وتختبئ عباداته بواخر لا حصر لها، وفوق التلال ترى قلاع القرون الوسطى بأبراجها. وكنا نرى طريقاً حديدياً آخر على حافة النهر الأخرى.

ثم مررنا بمدينة كوبنهاجن؛ حيث عبرنا الموزل فرع الرين، والمدينة حصن منيع ومزار جميل يقع عند ملتقى النهرين، وكانت التلال تُكسى بالكروم تقام عياداناً منفردة قصيرة على عصي، ومن ثم كانت المنطقة غنية بالنبيذ، وبعدها زادت منعطفات النهر، وكان يُرى بعضها في زاوية قائمة. وفعل القرض والإرساب واضح جلي في الجروف الهائمة وما يقابلها من ضفاف مدرجة، وتتوسطه مجاميع الجزائر، وكان القطار بين حين وأخر يخترق أنفاقاً ومقابر جبلية.

وعند مدينة Ringen قبيل ماينز اختفت الجبال، وانفسحت السهول الزراعية، ثم جزنا ماينز ثم مانheim ذات المصانع العديدة للكيماويات، ثم عبرنا النهر إلى الضفة الأخرى، وبعدها بدت هيلبرج التاريخية ذات الجامعة الكبيرة، والقلعة التي تشرف عليها من التلال حولها، ثم قارينا ستجرت ذات المناظر الخلابة؛ إذ تقع في وهة تقويم حولها المرتفعات بزراعاتها وغاباتها وعلىها الفلات البديعة، وعند مدينة Ulm بدا منحدر وعر تسلقه القطار بعد أن زُوِّد بقطارتين، وظل يصعد والحرارة تهبط هبوطاً محسوساً، والغالبات تزيد كثافة. وسرنا طويلاً فوق هضبة منزوعة، وبعدها أخذنا في الهبوط، وبعد ذلك عبرنا الطونة إلى أوجبيرج ومنها إلى ميونخ.

(٦-٩) ميونخ

ويسميهما القوم منشن، عاصمة ضخمة حَقَّا تليق بملكية عظيمة مثل بافاريا، فهي كسائر المدن الألمانية الكبرى ذات مبانٍ شامخة، وطرق ممدودة، كنائسها عديدة، وغالبها للكاثوليكي. وال القوم هنا متمسكون بالدين حتى إنك لترى في بعض الأرقة تماثيل المسيح وهو مصلوب؛ ولذلك قل تهُنُّ النساء بشكل محسوس.

ومن أجمل مبانيها الراتروس في هندسة قوطية فاخرة، ودار العدل في هندسة ألمانية ضخمة، والقصر الزجاجي عظيم الامتداد يقام كله من البلاور، يشغله اليوم متحف

التصوير، ثم القصر الملكي في هندسة «الباروك»، حوله الحدائق وأبهاء الأعمدة، وتنتهي حديقته بقصر أحد للمتحف الحربي، وأمامه في وهة قبر الجندي المجهول، وحوله مدافن أبناء بافاريا الذين ذهبوا ضحية الحرب الكبرى، ثم دارا المتحفين الفنيين القديم والحديث في هندسة إغريقية تحكي البانثيون. وعلى ربوة أقيمت تمثال بافاريا الشهير، وتمثلها سيدة ترفع إكليلاً بيدها اليسرى، وتتكئ علىأسد باليمني. وعلو قاعدة التمثال ٦٥ سلماً، وجوف السيدة ستون.

ويشق نهر «إيزر» المدينة في ليّات مستملحة، وتعبره قناطر عدة، ولون مائه ضارب إلى الخضراء تشوبها زرقة كعاذه الأنهر التي تستمد ماءها من الثلاجات، ولعل أهم ما في المدينة:

المتحف الألماني Deusche M.

الذي يعد الوحيد من نوعه في الدنيا، وهو وحده خير مبر لزيارة المدينة، وإليك مثلًا مما به: نماذج بالجص لبراكيين العالم، ومن بينها فيزوف، وتغضن القشرة الأرضية، وحفريات لكتائن بائدة، وشهب سماوية، ومن بينها شهاب زنته ٩٠٩ كيلو جرام، ثم نماذج كاملة لجميع أنواع المناجم بالآلات وعمالها وسراديبها التي قدت في عدة طوابق تحت الأرض آلاف الأمتار.

وترى تماثيل العمال في مختلف حركاتهم وأدوار أعمالهم، وأجملها مناجم الفحم والملح، ثم قسم للآلات التي يديرها الهواء والماء بحجمها الطبيعي، وفي أطوارها المختلفة، ويمكن إدارتها بسهولة، ثم معروضات لجميع وسائل النقل منذ نشأتها من عربات ودرجات وسيارات وسكة حديدية وسفن وطويارات وغواصات منذ اختراعها إلى أحدث طراز منها، والكل يمكن تحريكه، وهالني منظر سفينة كبيرة مقامة في صلب البناء نفسه بالآلات وفرشها وأدواتها وكافة تفاصيلها، كذلك معدات التغور والفنارات والمطارات والأسلحة والقنابر، ثم الساعات وتطورها، وكذلك آلات الموسيقى والراديو والأشعة، والأجهزة الهندسية والمتليةوجية.

وفي الحديقة الخارجية طواحين وروافع وإشارات السكك الحديدية وأكشاكها وقضبانها وتحاويلها وغير ذلك مما لم أستطع إتمام استعراضه، فالمكان يتطلب درسه وتفقده شهوراً، مكان إذا دخله الزائر آمن بعظامه الأدمغة الألمانية، وجبروت عقولهم، فهو كفيل بأن يرفع رأس تلك الأمة رغم ما منيت به من هزيمة في الحرب الكبرى.



في حديقة المتحف الألاني بميونخ وترى إحدى مطاحن الهواء الكبيرة.

وكان يحيط بالمدينة سور قديم لا تزال ترى بقاياه وببواباته، وبالمدينة جامعة للطلاب كبيرة، ومما تجب زيارته في المدينة دار الجمعة، أكبر مواطن البيرة وأقدمها في العالم — وال الجمعة من أكبر صادرات بافاريا — فبنياؤها القديم يتألف من أربعة طوابق في أبهاء متسعه، وأقبية سُقفها مزركشة، وتقام على عمد ضخمة.

دخلت المكان فذهلت لما رأيت من الجماهير الغفيرة من أبناء الشعب البافاري، كل فرد بيده جرة من الصلصال تسع نحو لترین يتناولها من دولاب، ثم يقدمها لحارس الجمعة يملؤها له فيحتسيها، ويعيد الكرة مثنی وثلاث ورباع، وترى البعض يحتسيها



دار الجعة في هندستها الألمانية القديمة بميونخ.

واقفًا بجانب برميل كبير من الجعة يضع كأسه عليه، ويغلب أن ترى ذلك في الدور الأسفل
وغالب من به من العامة.

أما الأدوار العليا فللطبقة الممتازة، وفيها تجد المقاعد والمناضد من خشب ضخم
منقوش، والمصابيح تتدلى في شكل دوائر متعددة ومزدوجة الثريات، وضوضاء المكان لا
تخبو لحظة واحدة. هنا حًقا يأخذ المرء فكرة صادقة عن الشعب البافاري، ومبلاع غرامه
بالجعة وميله للمرح، وكم كنت مغبطًا وأنا جالس وسط القوم وأمامي الجرة التي لم
أستطع أن آتي على ثلثها! بينما كان بعض الأطفال يتناولها في لمح البصر.

خرجت من المكان إلى ملئه أمامه اسمه Platz عرض به أشباه ما نراه عند الكسار
في مصر، وغالبه تمثيل للحياة الريفية الألمانية من عادات وأزياء ورقص وموسيقى، فكان
يومي هذا مما رُوح عن نفسي وراقني كثيراً.

(١٠) هولنده: بلاد السلام

دخلنا أرض هولنده وافدين من سهول شمال غرب ألمانيا، فلم نحس الفرق في المناظر المنسدلة تتخللها المطاحن الهوائية، وكانت السهول الوطئية تمتد إلى الأفق، فبررت أمامنا تسمية البلاد بهولنده؛ أي الأرض الجوفاء الوطئية Hollow land، على أن تربة البلاد بدت كثيرة الأتربة التي ضايقتنا في القطار، فكنا وكأننا نسافر في صعيد مصر، وطرقها الزراعية ردئه مترية، والمروج تغص بالبقر الأحمر والأسود تزيشه البقع البيضاء، والمباني بالأجر مختلف ألوانه يحل بقليل من الحجر الأبيض.

ولا تخلو السهول من الشجر المتاثر، وبعض الجهات رملية التربة كأنه من صحراري مصر، وعجب أن يحاول القوم الاستفادة منها بزرعها، وكان الصبية يمرون في جميع المحاط حاملين كؤوس القهوة مجھزة؛ مما يشعر بحب القوم لها، ويبير ما نعلم من أن الهولندي أكبر مستهلك للبن في العالم.

(١-١٠) أمستردام

ما أجملها! هي حقاً تفوق البندقية خفة وروعة، وخير دليل على ذلك أن ما يشقها من قنوات سبعون، وما يعبرها من قناطر أربعين، تطوقها سلاسل من المياه في حلقات تبلغ نحو العشر عدداً، الواحدة خارج الأخرى، وكل أولئك تقطعها قنوات مستعرضة تتجه نحو المركز، فأينما سرت ألفيت البيوت تقوم مقام ضفاف القنوات يرطمها موجهاً الهادئ.

وقد وقفت على قنطرة فكنت أرى من حولي قاب ثلاثة أمتار ثمانين قناطر ذات اليمين وذات الشمال، ومن أمام ومن خلف. وبعض تلك القنوات طبيعى؛ إذ المدينة تقوم على شعبية من بحر زويذرزي الضحل، والبعض صناعي حفر لزيادة المكانة التجارية للمدينة أيام لم يكن ينافسها غيرها في القرون الوسطى، ويخترقها نهر عظيم الاتساع اسمه Amstel، كان قد أقيم عند مصبها سد بنيت على جوانبه بيوت المدينة عند نشأتها، ومن

ثم حملت اسمها هذا، ومعناه «سد أمستل»، وتتشعب عنه عدة قنوات قرب مصبها. وقلب تلك القنوات يمثل المدينة القديمة الذي يرجع عهد بنائها إلى القرن العاشر، وخلال الحروب الإسبانية في القرن السادس عشر فر إليها كثير من رجال الفن والتجار والصناع، فزادوا المدينة شهرة، وزاع صيتها بعد تأسيس شركة الهند الهولندية سنة

١٦٠٢



أمستردام: قنواتها تجانب المساكن، والزوارق مطيتهم الرئيسية.

طرقها مختنقة قد لا يسع بعضها مرور شخصين متباورين، ولا يكاد يصيّبها شعاع من الشمس، وهندسة البيوت متشابهة، فهي من الأجر الملون، واجهاتها مسننة، وفي بعض الحلية البسيطة، والطرق نظيفة، ويغلب ألا يكون لها إطار، وإن كان فواطئ لكي تعلوه العربات عند الضرورة، ومياه القنوات يكاد يلمس باليد من الطرق، والمدينة تعد الميناء الثانية لهولندا بعد روتردام.

وعجب أن تقام كلها على مجموعة من عمد قد يبلغ الواحد عشرين متراً غرست في الرمال والأوحال، ومن المدهش أن تبقى بيوتها قائمة دون أن تنهر، وإن ظهر في بعضها ميل مخيف، ويُظن أن الأعمدة قد تحجرت اليوم وزادت صلابتها من أثر الماء والطين. وأكبر ميادين المدينة ميدان دام، وعليه القصر الملكي الذي يقام على ١٤ ألف من الأعمدة السالفة الذكر، بني سنة ١٦٤٨ عقب انتهاء حرب الثلاثين عاماً على أنقاض الراتهوس، واتخذه لويس نابليون الأكبر، قصرًا له عندما نصب ملكاً على هولندا، وفي واجهته مائة نافذة متشابهة تطل على الميدان.



سدود هولنده التي تدفع غالة البحر عنهم.

ولقد مررت بدار شركتي الهند الشرقية والغربية الهولندية، وهما من الأبنية القديمة، وبعض البيوت التي كان يميزها القوم بقطعة حجر يحفر عليها رمز كل عائلة، وكانت تقوم مقام أرقام البيوت الآن، ومن بينها بيت نوافذه من زجاج إذا نظرت خلاله إلى داخل الحجرات بدت الألوان بنفسجية، وإذا نظرت منه إلى الخارج بدت الألوان بيضاء، وتلك مهارة كانت للقوم في صنع الزجاج قديماً.

وئمَ حي لليهود الذين يبلغون ٧٣ ألفاً غاصُ بالحركة، وفيه بيت النابغة المفنُّ الدائع الصبيت «رامبرانت»، الذي أنجبته أمستردام، فأهدى للعالم من آيات فنه دُرّاً غاليليات لا تزال تزين متاحف أوروبا جميعاً، وفي داخل منزله مجموعة قيمة منها، ولم يبق به من مجموع صوره البالغة نحو خمسمائة وخمسين سوی ثلاثين، وتمتاز صوره بما يبدو فيها من روح قوي، وأضواء ذهبية تبدو لك وكأنها وهج لنيران تضطرم من ورائها.

ولقد أقام القوم له تمثلاً وسط ميدان توج باسمه، ودفنت رفاته في كنيسة الغرب الشهيرة التي يشرف برجها على المدينة كلها، ويقال: إن لجمال المنظر في هذا الحي أثراً في إظهار عبقريته هو وفيلسوف أمستردام النابه «سبنوزا»، وقد مررتنا على داره التي أطلق القوم ببابها «نظارته» التي كان يستخدمها عند القراءة والكتابة.

وتمتد أحياط المدينة الحديثة في الخارج في شوارع فسيحة، ومتزهات منسقة وبيوت ضخمة، ومن بينها الملعب Stadium، ويسع أربعين ألف نفس، وغريب أن تقوم تلك الأبنية الضخمة فوق تربة البلد الرملية الهشة. ومما زرناه دار فابريكة الماس، وتقام بالآجر الأصفر البراق في امتداد عظيم.

وهي أقدم معامل قطع الماس في الدنيا، وكذلك أكبرها، ولا يزال يشتغل بها ثمانية آلاف عامل، ولقد كان جو البلاد حاراً مشمساً على غير انتظار، وكانت مضائق القوم بادية على وجههم المقطرة التي تتصبب عرقاً. وتلك هي الموجة الحرارية التي مرت على غرب أوروبا عندئذ فمات بسببها الكثير، خصوصاً في إنجلترا. أما عندي فكانت تحكي أيام مصر القائمة في الصيف، وكان أفراد الجنس الأسود والصيني يجوبون الطرق بكثرة، وقد وفدوا من مستعمراتهم في جزائر الهند الشرقية للدرس، وكأنني كنت أحس أن وجودهم بتلك الكثرة مما يبرر ذاك الجو القائل الغريب.

قمنا من أمستردام صوب لاهاي بقطار كهربائي يسافر مرة كل نصف ساعة، فمررنا بهارلم وليدن، ثم دخلنا لاهاي بعد ساعة كاملة. أما الماظر فكانت مصرية بحثة بحقولها المسوطة السنديسية، وقنواتها العديدة، وشجرها المنتشر مع استثناء مطاحن الهواء المنتشرة. وفي الحق أن الشعب الهولندي نشيط مجد، كفاه فخراً أن استنبط أرضه الرملية المفقرة، وغالب البحر وهو لا يزال يرده عنه بحر زويذرزي، وهم يفاخرون أنهم مدوا نصف بلادهم على حساب البحر، وفي أمثالهم المشهورة «إن الله خلق لهم البحر وهم أعدوا له شواطئه».

ولا يزال يغير البحر عليهم أحياناً برشحه الكثير، وقد يهدم الجسور التي يقيمونها لصدده؛ ففي آخريات القرن الثالث عشر اجتاح ألف قرية كانت على أراضي زويذرزي في يوم واحد، وبعض جسورهم تعلو سطح الماء بأربعين قدمًا، والأراضي التي أصلحت داخلها قد تكون دون مستوى البحر بهذا القدر، فلو كسرت الجسور لغرق من بلادهم ٣٨٪ مرتين في اليوم؛ أي عند علو المد.

وتقام تلك الجسور في البحر من الرمل والأترية ترصف جوانبها بالعشب والخشب، وقد تدك بالحجر، ثم تجف الأرض من داخلها بمضخات يديرها الهواء، ثم تزرع كتانًا



الجبن في هولنده يعرض في كرات حمراء تكاد تكسو الأرض.

لتحف أملاحها، ثم يزرع بها البطاطس والبنجر والأعشاب للرعي، وقد تتعدد تلك الجسور بعضها أمام بعض، ومنتجات المرعى أهم ما في البلاد من لحوم وألبان؛ ولذلك شهرت بالجبن الفلمنك الأحمر الذي تعقد له أسواق خاصة نرى بها أكاديس الكرات إلى مد البصر.

وكثيراً ما يتهم الناس على هولنده فيسمونها «بقال أوروبا»، وأنت ترى القنوات أينما سرت في بلادهم، وبعضها كبير يصلها بالمحيط، والبعض صغير للنقل الداخلي زهيد الأجر، ولمقاومة فيض الأنهار، خصوصاً وأن الطرق البرية عندهم واهنة لا تحتمل ضغطاً كبيراً؛ ولذلك قلما تسمع في الشوارع ضوضاء النقل، وجبلة العربات، فالبلاد ساكنة الحركة، والقنوات خاصة بالزوارق «الصنادل» يجر بعضها الناس والخيول، غالباًها الآن بالبنزين، وهي تُتَّخذ مساكن للكثير منهم، حتى قيل: إن من يقطنون الزوارق مائة ألف،



أعجب ما في أرديتهم غطاء الرأس للسيدات والأحذية الخشبية بالغة الحجم.

ولعل في بطء سير تلك الوسائل مبرراً لما هو معروف عن الهولندي من البطء في كل شيء: في التفكير، وفي العمل، وفي الكلام، بل وفي جميع تصرفاته؛ فهو يختص كل ساعة من زمانه بعمل، لكنه يسير في إنجازه ببطء ممل.

والهولندي سيء الظن بالغير، شحيح في معاملاته المالية ومساوماته؛ ولذلك كان أبطأ من غيره في المغامرة في المشروعات الاقتصادية، ويؤخذ عليه شيء من قلة الذوق في الحديث؛ فهو صادق صريح لكن لحد الإيلام، رذيلته الواضحة إدمانه على المسكرات. أما

نظافة مسكنه فخيالية، رغم إهماله في نظافة هندامه، حتى إنك لتعاف النظر إلى بعض المارة، فإذا ما دخلت منزل أحدهم هالك بريق جوانبه، ولمعان أثاثه، وشدة التأنق في تنسيقه إلى حد المضايقة.

ويروك هندام القوم العجيب، فالرجال يلبسون شبه «سروال» فضفاض ينتهي عند العرقوبين، وجَّمازة «جاكتة» محبوكة على الجسم، ومنديلاً معقوداً حول الرقبة، وتتدلى منه ذؤابة على الصدر كالكشفة، أما النساء فيرتدن على الرأس قلنسوة بيضاء ذات جناحين جانبيين مشرفين، وجلابيب محبوكة طولية تنتفخ من أسفلها، وتلبس عليها «فوطة» ألوانها زاهية، وأخذية الجميع من خشب تحكي مرکوب فلاحي مصر، طرفها مقوس إلى أعلى، ويقال: إنها أطول أخذية في العالم.

وأحب وسائل الرياضة لديهم السباحة وقيادة الزوارق، وكذلك ركوب الدراجات التي أصبحت مطيتهم المحبوبة في انتقالاتهم حتى بين القرى، ولقد بلغ عدد الدراجات في أمستردام نصف المليون مع أن مجموع سكانها سبعمائة ألف.

وكان يجذب أنظارنا في بعض الحقول عنایتهم بفلاحة البساتين، وتربيبة الزهور التي كانت تبدو أمامنا وهي تكسو الأرضي في صفوف متوازية إلى مدار البصر، وفي ألوان جذابة كأنها الطنافس الزاهية؛ وذلك يدل على مبلغ غرامهم باقتناء الزهور.

(٢-١٠) لاهاي

ويسمونها هيج بإمالة الهاء، وهي محرفة عن Hedge، أو السياج، ذلك لأن أول من حلها من الكوتنات أقام لها قصراً، وأحاطه بسياج، وهي مدينة نظيفة جدًّا، لكنها موحدة المناظر تحكي أحياط مصر الجديدة عندها في ازدهار مبانيها ذات الهندسة المتشابهة، وبها مجموعة من الشوارع المتسعة يتوسطها صفان من الشجر، على أن أمستردام في نظري أخف روحًا، وأوفر جمالاً، وخير ما رأيت فيها:

قصر السلام Palace of Peace

وهندسته هولندية بحتة، وبينى بالأجر، وهو من الداخل فاخر الزخرف، فخم البناء إلى حد كبير، تبرع لبنائه الممول الأمريكي «كانبي» بمليون ونصف مليون ريال، وقد أهدت إليه غالبية الدول ما فيه من أثاث، نذكر على سبيل المثال: المدخل الخارجي بأسواره،

وقد أهدته ألمانيا، والمدخل الثاني قدمته بلجيكا، والرخام والممر المزركش تقدمة من إيطاليا، والمسابح الفاخرة من النمسا، وبعض الجرار «فاز» من المجر، وزجاج النوافذ الملون كالمساجد من إنجلترا، والصور الزيتية الكبيرة التي تحلى بها الجدران من فرنسا، والفوارة التي تتوسط فناءه من دانمارك، وتمثال قيم للمسيح من أرجنتينا، وأخر للحرية من بعض مقاطعات الولايات المتحدة، والبساط الكبير الذي يملأ حجرة المؤتمر من تركيا، والحرير الذي تبطن به بعض الجدران من اليابان، والمحابر الفضية النفيضة من إسبانيا، وخشب المقاعد والمناضد الثمين من البرازيل، وجرة بها نقوش صينية من الصين، وأخرى مرصعة بالذهب من الروسيا.



دار السلام في لاهاي.

وكنتأتوقع أن أرى هدية مصرنا ذات السخاء والكرم، لكن لسوء الحظ لم تقدم شيئاً يعلن عنا بين تلك الأمم المتحضرّة. وفي اعتقادي أن هذا ممكّن الآن، وفيه معنى جليل؛ إذ يدل على مشاطرتنا العالم المتدين في حب السلام والعمل على تأييده. حقاً إنه لقصر

طمئن النفس فيه، وتحس الهدوء والطمأنينة؛ لأنه في معناه ومبناه فأل السلم وبشيره، وقد نقش القوم على أرض المدخل ما معناه «تظل شمس السلام مشرقة علينا».

ثم زرت قصر الملكة، ويتقدمه تمثال فارس يمثل وليم الصامت، ولا بأس بضخامته من الداخل، وأبدع ما به غرفتان: إحداهما هدية من اليابان، وتظهر بها العبرية اليابانية في التطريز، ودقة خرط العاج والخشب، والأخرى من الصين، وهي لا تقل عن الأولى رواء وإنقاناً، وتكسو قبته الوسطى صور زيتية رائعة للمصور الفلميكي المبدع «روبنز»، وكلها ترمي إلى معانٍ تاريخية. وهنا لأول مرة ذكرت الفاتكان وإبداع رفائيل وميكلانج، وأعجبني في أحد المiardين نصب تذكاري لهزيمة نابليون سنة ١٨١٣، وإقامة وليم الأول ملكاً على هولنده.

وللعاصمة ضاحية على بحر الشمال بينها غابة كبيرة، والضاحية فاخرة المباني فخمة الأنزال، وتعد خير مصايفها، يمتد رصيفها على البحر خمسة كيلومترات في تنسيق رائع، وعلى مدرجاته الرملية تقوم أكشاك السباحة المزركشة المتشابهة. وهنا تبدو كثبان الرمل التي تحف بشواطئ هولنده على بحر الشمال في وضوح، وفي نهاية الرصيف ميناء صغيرة للصيد، ويقطنها نحو ١٢٠٠ سمّاك، ولهم مدرسة لدرس السمك وما يتعلق به؛ مما يشعر بأهمية مهنة الصيد عندهم. وسمك هولنده جيد النوع بفضل تعلیمه في السفن بمجرد صيده. وفي هذا المكان نصب تذكاري للموقع الذي رسا به وليم من إنجلترا.

(٣-١٠) روتردام

وصلتها بقطار كهربائي في نصف ساعة، وتبدو لأول وهلة قائمة غير جذابة؛ فمبانيها متراصة شاهقة، وليس على نسق واحد، وقليل منها في هندسة هولندية، والحركة التجارية بها كبيرة، ولقد مررت بتمثال «أرزم»، وهو خير من أنجبته المدينة، وطفت بغالب أرجائها، ثم أخذت زورقاً بخارياً وجْبَت نواحي مينائها، فبدت عظمة المدينة التجارية في سفنها المتراصة في غير حصر، وفضائلها التي لا تخبو.

وهي تقع على مصب نهر ماس «الميز» المتسع العميق الذي يُكُون القسم الأكبر من الميناء، وعنه تكثر ألسنة البحر تتوسطها بعض الجزر، والماء داخل الميناء مائج مضطرب من تقابل تيار النهر بماء البحر. أما خارجها فهادئ، ومظهرها يدل حَقّاً على أنها أكبر الموانئ التجارية بهولنده اليوم، وأنها كانت قدِّيماً أكبر موانئ غرب أوروبا

قاطبة، ويشقها عدد كبير من القنوات كسائر بلاد هولنده، وفي بعض أحيايئها ترى صفاً مستطيلاً من الأبنية توازيه قناة، ثم يتلوه آخر فقناة وهكذا.

(١١) الدانماركة: بلاد الديمقراطية والتعاون

قمت من برلين قاصداً كوبنهاجن عاصمة دانماركة، في ٢٤ أغسطس، فأخذت قطار الثامنة والنصف صباحاً من محطة Stettiner وكانت ليلتنا ماطرة، وظل الوابل طوال النهار والليلة التالية، والبرد كأنه شتاء مصر، وسرنا خلال سهول تكسوها الخضراء والأشجار حتى وصلنا فارنمند على البلطيق في منتصف الساعة الواحدة بعد الظهر. وهنا انزلق القطار كله إلى سفينة طويلة منتفخة الوسط *ferry boat*، ثم فصلت عنها القاطرة، وعجيب جدًا أن يسع وسطها صفين من العربات الكبيرة في كل صف ست عربات، وحول هذه تصف حجرات المسافرين في ثلاثة طوابق، وتوسق بعض البضائع، وفي السفينة نُزل فخم تناولنا فيه الغداء، ثم أقلعت بنا في عرض البلطيق الذي غابت عنا شواطئه إلى الساعة الثالثة حين وصلنا Gedeser على جزيرة دانماركية.

وهنا جرتنا قاطرة بـً وسارت في سهول ميسوطة كثيرة النبت والمراعي بأنواعها، تجملها بيوت صغيرة تبني بالأجر الأحمر الجذاب، وسقفها مثلثة سريعة الانحدار، لكنها مشطورة الجوانب، ثم وصلنا الماء ثانية، وحللنا بالقطار سفينة أخرى نحو ساعة، ثم إلى بـ آخر، ومنه على كوبنهاجن. وكانت الجزائر تمتد حولنا في جميع الأفاق، وبفضل تعدد تلك الجزائر كانت دراية القوم بركوب البحر كبيرة حتى إن بواخرهم التي تixer عباب بحارهم أصبحت من الأعاجيب، وبلغت تلك العوامات السابقة بين الجزائر بنظام محكم جدًا من الإتقان فاق نظائرها في بلاد العالم أجمع. وعدها اليوم يناهز أربعة وعشرين، ويبلغ مجموع ما تنقله من الأحمال مليوناً من الأطنان، وكذلك مليوناً من المسافرين في كل عام.

(١-١١) كوبنهاجن

حاضرة الدانماركة التي تغص بما لا يقل عن ثلاثة أربع المليون من أهل دانماركة البالغ عددهم ثلاثة ملايين، ولذلك فإنها جمعت كل مظاهر العظمة في البلاد، وما عدتها من المدن قرى لا تذكر إلى جانبها، ولها موقع جميل على الساحل الشرقي لجزيرة زيلند

— طفت أرجاءها مشياً — فبانت لي أعظم أرجائها على امتداد طريق رئيسي يشقها في الوسط، تتوسطه ميادين غير جذابة يعوزها التماثل في هندستها.



مؤخر الباخرة التي تحمل في قلبها قطارين حديديين عبر البلطيق ومن ورائها بلاد السويد.

وهنا معظم المحال التجارية ودور السينما والملاهي ومباني المدينة متشابهة، هندستها ساذجة في شكل مكعبات، يعلو وسطها برج كأنه منشور رباعي ينتهي بهرم. ويندر أن تقع العين على بناء مخالف، ولكنها بالأجر الأحمر. والبحر يطوق المدينة بأحسن لا حصر لها، فأينما سرت في استقامات لاقت شعبة من البحر بها الباخر والزوارق والمراسي وصيادو السمك ينظفونه، ويلقون بأحشائه في اليم، ويعرضونه في زوارقهم للبيع، وبالمدينة عدد لا يأس به من المتنزهات أشهرها Tivoli، وبه مجموعة من الألعاب والأراجيح والمقاهي، ويضاء بثيريات الكهرباء ذات الأشكال البديعة في شيء من الإسراف ليلاً، وبعد أكبر مكان للتسلية في تلك البلاد.

والناس هنا يلاحظ في وجوههم بعض الاختلاف عن الألمان والنمساويين، خصوصاً في شدة حمرتهم، وصفاء زرقة عيونهم، وعرض أنوفهم قليلاً، وهم دون سابقتهم جمالاً

وجاذبية، على أنهم مرحون نشيطون نظيفون، وتراهم يستخدمون الدرجات مطية لهم صبية وشباناً وشيوخاً، نساءً ورجالاً، وخير ما تتجلى نظافتهم في هندامهم الأنثيق وأماكنهم. ولقد عد طهاتهم أنظف طهاء أوروبا وأمهاتهم، وإن لم يرقني غذاؤهم كثيراً، فكله مسلوق، ويكثر لحم الخنزير، والدانماركيون كثيرو الأكل، فهم يفوقون في ذلك حتى أهل إسكندنavia؛ إذ يتناولون بين أربع وست أكلات ثقيلة في اليوم، ولا تخلو أكلة من طعامهم المغذي المحبوب الذي يسمونه «سمور برود»، ومعناه الخبز الملطخ، وهو مزيج من الخبز والزبد والبيض، وقطع الدجاج والسمك ولحم الضأن، وبعض الخضر، كل ذلك يقدم إليك مختلطًا كالساندوتش.

وفي الطعام يصدر به الأكل، فيشعر المرء بامتلاء عند تناوله قبل أن تقدم له الأطعمة الرئيسية، وترى بأعيه يتجلوون في الطرق بعربات يدوية صغيرة يجهزونه لك على الفور، وكم كان يدهشني وأنا أجلس إلى مائدة الطعام في النزل منظر القوم يلتهمون الطعام التهاماً، وبسرعة عجيبة، رغم كثرة الكمية التي تقدم إليهم من البطاطس المسلوقة واللحوم، والطعام القومي السالف، وأنواع من الحلوي تحكي العجين يمزج باللبن والعسل تعافها النفوس!

ومستوى الثقافة عالٍ بينهم، فهم المتعلمون جميـعاً، وليس للأمية أثر بينهم، وميلهم للتعاون فطري، وليس لدارسـهم بـرامـج مـسطـورة، بل يـترك أمر تـخـير المـادـة لـالأـسـتـاذـ الذي يـدرـسـ ما يـراـه صـالـحاًـ، والأـمـتحـانـاتـ الـعـامـةـ تـكـادـ تكونـ مـعـدـوـمةـ. وهذا يـدلـ علىـ مـبلغـ نـزاـهـةـ أـسـاتـذـهـمـ، وـكـبـيرـ ثـقـةـ الـقـومـ فـيـهـمـ، وـلاـ يـشـرـطـ فيـ الأـسـتـاذـ أـنـ يـكـونـ حـائـزاًـ لـإـجازـةـ عـلـمـيـةـ، بل يـكـفيـ أـنـ يـكـونـ غـيـرـ المـادـةـ، حـسـنـ النـظـامـ، كـبـيرـ الشـخـصـيـةـ، جـذـابـ الـحـدـيثـ. ولـعلـ هـذـاـ النـظـامـ التـعـلـيمـيـ الـحـرـ الـذـيـ بـنـيـ عـلـىـ أـسـاسـ عـمـلـيـ، وـالـذـيـ يـرـغـبـ فـيـهـ النـشـاءـ لـلـعـلـمـ الـخـالـصـ لـلـشـهـادـاتـ وـالـإـجازـاتـ هـوـ سـرـ نـجـاحـهـمـ التـامـ فـيـ شـؤـونـ الزـرـاعـةـ وـالـرـعـاـيـةـ، بـحـيثـ أـصـبـحـواـ قـادـةـ الـعـالـمـ وـهـدـاتـهـ فـيـ هـذـهـ النـاحـيـةـ.

والتعليم العالي عندهم قسمان: قسم للتاريخ، ويدرس به تاريخ الأمم الشمالية، والتاريخ العام، وتاريخ الأدب والكنيسة والحضارة، وقسم للبحث الطبيعي، ويشمل الفلك والكيمياء والجيولوجيا والبيولوجيا، والنابهون من علمائهم كثيرون في مختلف العلوم، نذكر من بينهم: تيكوبراهة في الفلك، وأوريستيد في التغراف الكهربائي، ونيلز فنستين في الطب، وبولسين في اللاسلكي، وفيهم أندرسون في اللغات. وهذا يدل على أن نظام التعليم الحر الذي يعيّب عليه البعض تطرفه في الإباحة يؤتي ثماره الطيبة بينهم.



كوبنهاجن: أمام دار الاستشارة وهي في هندسة دانماركية بحثة.

وأظهر المدارس هناك الزراعية، تلك التي بلغت شاؤً بعيدياً من التقدم، وكفاهم فخرًا أنهم أخصبوا موات أرضهم المجدبة الفقيرة بجهودهم العلمي؛ ولذلك يؤمها الخلق من مختلف بلاد العالم لدرس نظامها الزراعي البديع. وثلث مساحة البلاد مجزأ في أربع وأربعين جزيرة، ونصف سكانها مزارعون، غالبيهم متيسرو الحال، بل وأغنياء، والفضل في تقدمها الزراعي يرجع إلى: نظام الملكية الحكيم، وإلى ثقافة القوم، وإلى ميلهم الفطري للتعاون.

ولقد ظل القانون أمدًا لا يبيح شراء الأرض من مالكها إذا كان فلاحًا، وكذلك فهو يحتم على الفلاح الذي يستأجر أرضاً أن تكون الإيجارة مدى حياته، وتقاد تثبت قيمة الإيجارة أجيالاً عديدة لا تزيد ولا تنقص، وكثيراً ما تفرض الحكومة صغار الفلاحين المال إذا ما أرادوا شراء أراضٍ جديدة، وكذلك تسيطر كبار المالك أن يبيعوا شيئاً من أملاكهم، وبذلك أصبح نحو تسعين في المائة من الأراضي ملّاً لصغار المزارعين، ولا تقف ثروة البلاد على غنى أرضها بقدر ما تقف على جودة العمل والفطنة في الإنتاج.

ولقد كانت البلاد غنية بإنتاج القمح، ولما انحط سعره لكثرة إنتاجه في الخارج عمد غالب الفلاحين إلى الاستعاضة عنه بالراغي التي لا تتطلب من الجهد والأيدي العاملة ما تتطلبه زراعة الحبوب، واستحوالت البلاد من مصدر للغلال إلى مستورد لها بعد إعفائها من ضرائب الوارد. وفقط القوم إلى قيمة الصناعة فأنشئوا المصانع تحت إشراف الهيئات التعاونية لإعداد اللحوم ومنتجاتها، وأصبحت البلاد تصدر من منتجات المراعي والدواجن أضعاف ما كانت تجنيه من صادراتها الغفل من قبل، فهي تصدر من الزبد المشهور بنحو ١٤ مليون جنيه لإنجلترا وحدها.

وقد أصبحت البلاد غاسة بالتعاونيات التي ينتمي إلى عضويتها جميع الفلاحين، وقد يشتراك الفرد في أكثر من عشر جمعيات منها؛ يحضر جلساتها، فيزيد هذا في ثقته بنفسه، ودرايته بعمله، وشعوره بالمسؤولية، واستعداده للتضحية، وتميز التعاونيات الزراعية هناك بأن أموالها ليست مستمدة من الفلاح، بل من المصارف تحت مسؤولية أعضائها. وهذا سر نجاحها العظيم، ولعل ثقافة الفلاح كانت خير معين على ذلك النجاح، وأثرها جليل في تحسين الإنتاج وزيادته، ولقد زاد إنتاج البقرة الواحدة مثلاً من ١١٦ رطلاً من الزبد في العام إلى ٢٢٠، ومن ٥١٠ جالوناً من اللبن إلى ٥٥٤، ويناهز عدد البقر الحلوبي عندهم المليون.

وأصبحت الزبدة الدانماركية أجودها في الدنيا، وتقدر بأربعين في المائة من مجموع الصادرات، وشجعت التعاونيات إقامة المصانع ومحطات الكهرباء، وهي الآن تمتلك ٢٥٠ محطة كهربائية كبرى لإنارة القرى وطحن الغلال.

والحكومة تكاد تشرف على كل شيء، وتتدخل في جميع الأعمال، فهي أشبه بأوتوقراطية يسوسها قوم مصلحون، والاشتراكية الفردية سائدة في بلادهم. زرت من متاحفهم: المتحف الأهلي، وبه مجموعة كبيرة من الآثار الدانماركية، وبه قسم لتطور المدينة في بلادهم يعرض به كثير من مساكنهم وأثاثهم ونسيجهم، وثم قسم

ثالث للشعوب، ويعطي صورة لحياة الإنسان في مختلف العصور والبلاد، ثم متحف Glyptothek وبه معارضات آيات الحفر الدانماركية والفرنسية، ويقال: إن المجموعة الفرنسية التي به أوفي مجموعة من نوعها خارج فرنسا، وفي قسم منه قطع من الفن القديم الإغريقي والمصري والروماني ومخلفات تدمر، وهذه أكبر مجموعة من نوعها في العالم.

وخير ما راقني من الفن المصري تمثال صغير من برونز لآمون مطعم بأسلال الذهب حول العنق، وفي اليدين والأذنين وفوق الرأس بشكل يجتذب جماله الأنماط. وبالمتحف قسم للصور الزيتية البديعة، ثم متحف Thorvaldsens باسم مهديه، وبه خليط من قطع أثرية وصور فنية، وكان صاحبه مصوّراً دانماركيًّا ماهراً أهداه لأُمته، وهو مدفون في فنائه الأوسط.

ومن الأبنية التي تهول السائح لضخامتها وهندستها الهولندية البحتة «الراتهوس»؛ أي دار الاستشارة، وهو يشرف على أكبر ميادين المدينة، وكلف نحو ستة ملايين من الكروناات به ستمائة حجرة وخمسة طوابق، وعلو برجه ١٠٦ أمتار، به ساعة تدق نغمة موسيقية طويلة مرة كل ربع ساعة، ثم عدد الساعات كلما كملت ساعة، ورنينها يكاد يسمعه كل أهل المدينة وأبهاؤه وردهاته في فخامة ورواء.

قصر كرستيا نزيرج

أحد القصور الملكية الرئيسية، وهو أقدم القصور الملكية، لكنه جدد سنة ١٩٠٦ بعد أن احترق مرات عديدة، ولا تزال أنقاض القصر القديم وبقايا جدرانه تحفظ في أسفل المكان ليزورها الناس كأنها متحف. يقيم الملك فيه الحفلات، ويستقبل الزوار والسفراء. والحق أنه فخم لدرجة كبيرة، فأيات الحفر والنقوش بالذهب والفضة وأنواع الرخام والمرمر مختلف الوانه مما يدهش الناظر، وحجرة العرش مبطنة بالبسط والحرائر من نسيج ليون في لون أحمر رهيب، وجناح منه خاص بالبرلانا، وغرفة في بساطة.

وتزين ردهاته صور للأعضاء والوزراء في جميع الأزمان، وبين الوزراء سيدة كانت وزيرة الزراعة سنة ١٩٢٤. وثم صورة بد菊花 للمؤتمر الدولي لمقاطعة شلزفج التي ضمت للدانمارك من ألمانيا سنة ١٩١٨، واسترعى نظري إثناء Vase فخم أهداه البرلمان الفرنسي للبرلانا الدانماركي، وهناك ترى الدستور مسطوراً وممهوراً بإمضاء الملك كرستيان العاشر الحالي سنة ١٩١٥، وهو موضوع داخل سلة من فضة غطاها من زجاج، وفي

داخلها المحبرة التي كُتب بها، وقد بلغ من ديمقراطية الشعب وملكه أن الملك يخرج وحيداً يمشي على رجليه، أو يمتهن جواهه كل يوم وهو يجوب أطراف المدينة في غير حراس يحيي الناس وهم يحيونه وكأنه واحد منهم.

ولقد رأيته مراراً وهو يرفع قبعته تحيي لأقل الناس مقاماً. هذا ولقد أبطلت دانماركة عادة تتويج الملوك منذ عهد جد الملك الحالي؛ لأن الناس رأوا أن حفلات التتويج متكلفة، فضلاً عن نفقاتها الباهظة، وللناس كامل الحرية أن يتريضوا في حدائق القصر على مسمع من الملك، والقصور كلها يزورها الجميع في مواقف معينة. كل ذلك يؤيد ما هو معروف من أن أهل دانماركة هم المثل الأعلى للديمقراطية؛ فالرجل منهم يرفع قبعته احتراماً لأحرق الناس حتى للخادم، وقيمة المرء عندهم بعمله فقط، وفوارق الطبقات معدومة، والمميزات والحقوق الموروثة لا أثر لها عندهم.

وقد خلف ذلك أثره في التسامح الديني عندهم، وفي إباحة الطلاق للجميع على أن يكون ذلك في السر لا في العلن؛ ولذلك كثر الأبناء غير الشرعيين بينهم، والقوم لا يعدون ذلك عيباً، بل أمراً طبيعياً لا عقاب عليه. وفي خلقهم التسامح العام والمسالمة لا يقع بينهم شجار قط، ولا يتعرض أحدهم بالإهانة للغير، وإن حدث ذلك كان عقاب القانون قاسيًا. وتلك لا شك من آثار البيئة الزراعية، ويتحدث الكثير منهم في نزع السلاح، وتسرير الجيوش، والاستغناء عن الأساطيل، ولا يرون فائدة في بقائها، ويعتقدون أن الوقت قد حان لإنفاذ تلك الرغبة.

أما مقام الملك ففي قصر Amalienborg، وقسمه الأوسط خاص بالاستقبال، وبه غرفة العرش، وجناحه مقوسان: الأيمن للملكة، والأيسر للملك، وأمامه ميدان فسيح يتوسطه تمثال فريدريك الخامس من البرونز، ومن عمل المثالى الفرنسي الدائع الصيٍت Slay، وقد بلغت أكلافه حداً خيالياً؛ إذ ناهزت ربع مليون جنيه.

ومما يسترعى النظر في المدينة ميناؤها التي تغص بالسفن من كافة الأشكال والأحجام، وهي في حركتها وقلة نظافتها تحكي ميناء الإسكندرية القديمة، على أنها كثيرة الشعاب التي تعبّرها القناطر في كل اتجاه، بحيث كثيراً ما ترى جزءاً من المدينة يحوطه الماء من كل جانب، وفي إحدى تلك النواحي الجزرية زرت كنيسة Frelser kirke، وهي شاهقة وذات أقبية كثيرة من الداخل، وأخص ما يلفت النظر بها برجها الذي نصعد إليه بسلم حلزوني من خارجها يشبه مئذنة ابن طولون، وقبتها خضراء اللون يزينها طلاء الذهب، وتفوق المائة متر في العلو.



دستور دانماركة في مدخل البرلمان يحوطه إطار مرصع فاخر.

ومستوى المعيشة هنا مرتفع لدرجة كبيرة، وقد قابلت أحد الإسرائييليين المصريين هناك، حادثني طويلاً وأفهمني أن المقادير طوحت به أن يشتغل بالشئون التجارية في كوبنهاغن، وهو يشكو من الشكوى من الغلاء الفاحش؛ لأنه ينفق دخله البالغ أربعين جنيهاً في الشهر، وهو يشعر أنه في ضيق مالي. ويبدو الغلو في أثمان الملابس، فمتوسط ثمن البذلة الواحدة تسعه جنيهات، والحداء مائة وثمانون قرشاً، ولعل دانماركة أغلى البلاد التي زرتها جميعاً، وتکاد تشبهها في هذا الغلاء بلاد السويد والنرويج، ثم هولندا وألمانيا على عكس دول وسط أوروبا وجنوبها، فتكليف الحياة فيها أقل بنسبة واضحة.



ملك دانمارك على جواده يحيي المارة في غير حراس.

(٢-١١) إسكندنavia: موطن الغابات والطبيعة الساحرة

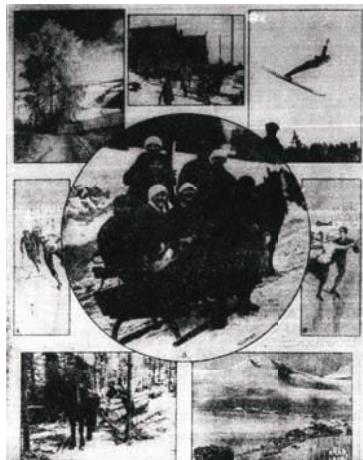
لعل أصفى ما يكون الجنس النوردي في تلك البلاد، وهم شعبية من القوط اتخذوا القرصنة عملاً لهم، وركبوا البحر ونزلوا جزائره وأجوائه، ثم استوطنوا بلاد إسكندنavia الثانية فلم يمتزجوا بغيرهم كما حدث مع أقربائهم من الإنجليز والألمان والهولنديين والدانماركيين، وهم لا يزالون يمتازون بالشعر الأصفر والعيون الزرقاء والقوام الشامخ، وهم الذين وصلوا جرنيلد وأمريكا قبل عهد كولب بخمسة قرون، و كانوا معروفيين بشدة البأس والوحشية



ووسط ميدان القصر الملكي «أمالينبرج» في كوبنهاجن.

التي استحالتاليوم إلى حب للمخاطرة، ومغالبة لقوى الطبيعة من جبال وثلوج وغابات وسيول.

وكفاهم فخراً أن أنجبوا أمثال أمندصن ونانسن من كبار الكاشفين. وأهل السويد أغنى من جيرانهم سكان النرويج؛ ولذلك كانوا أميل إلى الأرستقراطية، وبدت فوارق الطبقة بينهم واضحة على عكس النرويجيين المعروفين بحبهم للديمقراطية واحترام النفس، حتى إن الخادم والحوذى ليخاطبك وكأنه من أندادك، ويقطن أطراف إسكندنavia ألم اللابلدين والفنلنديين. وهم من أصل مغولي طاردهم النورديون إلى الشمال لما أن حلو تلك البلاد، وهم لا يزالون يحافظون على كثير من مميزاتهم الجنسية؛ كاستدارة الرأس، ونتوء عظام الخد، وانتفاخ العيون وانحرافها، وتفرطح سحنهم.



إسكندنavia في الشتاء: ونرى بعض ملاعبهم فوق الجليد وبيوتهم الخشبية وطرقهم في نقل الأحشاب.

وهم يحلون بلادًا فقيرة لا عمل لهم فيها إلا صيد السمك وإعداد الفراء، ورعاية قطعان الرنة، على أن الجزء الواقع في السويد غني برواسب الحديد، حتى إنك لترى على مقربة من مدينة جلفارا «شمال السويد» جبالاً من الحديد الخالص في مجموعها، وكذلك في كيرونا، ويصدر منه قدر كبير بفضل الخط الحديدي الذي أنشئ خصيصاً لهذا بين رأس خليج بوتنيا وثغر نارفوك شمال غرب النرويج.
والعمل يستمر هناك حتى في ظلام الشتاء على أضواء الكهرباء المتوجة، وعدد الباب دون ثمانية آلاف، والفن نحو ثلاثة ألفاً.

قمت من كوبنهاجن قاصداً ستكمالم، وبعد عبور أحد مضائق البحر البلطي نزلت مالمو من أعمال السويد، وهي مدينة صغيرة لا يأس بتسييقها، وتعد من التغور التجارية، ثم أخذت القطار الذي سار بنا في سهول فسيحة لا يزال يُحصد بها الشوفان والشيلم، وبعض القمح والكتان الذي يكاد ينسجه الجميع بأنواع يدوية في المنازل. أما الغابات فحدث عنها، فهي تكاد تملأ كل البقاع وهادا ونجاداً، وفي كثافة جعلتني أفهم حقاً أن تلك البلاد منابت الغابات وموارد الأخشاب؛ فالمقازل كلها من الخشب تقام في هندسة أنيقة،

وتطلى باللون الأحمر، ومقاطع الخشب ومناشره تملأ الآفاق، وقاطرات السكة الحديدية تمر تباعاً وهي تحمل وسقها من منتجات تلك الغابات.

وفي بلاد السويد وحدها ١١٠٠ مصنع كبير لنشر الخشب، أشهرها يقع على سواحل خليج بوثنيا، وذلك بفضل الغابات التي تغطي نصف مساحة السويد، وبفضل الأنهر السريعة ذات المساقط المائية العديدة، وتلك تعوم فيها أرمات الخشب إلى المساقط؛ حيث تستخدم قوة الماء في إدارة الأرقاء والمناشر، وفي توليد الكهرباء، كل ذلك كنت أشاهده طوال الطريق.

ولعل مدينة Sundsvall على خليج بوثنيا «٦٢° ش» هي وسط صناعة الأخشاب، يحيط بها ثلاثون مصنعاً لنشر الخشب وإعداده. ولقد أصبحت الكهرباء زهيدة القيمة ومنتشرة حتى في أحقر القرى، وقد كانت قرية Hernosand شمال ساندزفال أسبق بلاد أوروبا في الإنارة بالكهرباء، وبفضل انتشار الكهرباء عمّ استعمال التلفون، ورخصت أجوره، فهي لا تundo جنيهين ونصفاً في العام؛ ولذلك كان السويديون أكثر الناس استخداماً للتلفون؛ إذ دل الإحصاء الأخير على أن لكل خمسة أشخاص من السكان تليفوناً واحداً.



اللابنديون في شمال إسكندنavia.

ظل القطار ينهب الأرض في سرعة مخيفة ساعات ناهزت الالثني عشر حتى وصل ستكمالم، وكان الإقليم يغص بالمنافع والبحيرات والغدران التي خلفتها ثلوج العصر الثلجي حين اجتاح البلاد جميعها، وعرى تربتها، وخلف بها تلك القيعان. أما طبيعة

الأرض فصخرية نارية قديمة، أظهر صخورها الجرانيت الذي يصدر القوم منه مقادير كبيرة لبلاد الدانمارك ذات التربة الرملية.

وكان يكسو حطام تلك الصخور البقاع الوطية، فتصبح خصبة زراعية، ولا تخلو بقعة من الخضرة تزييناً الزهور الجميلة؛ مما جعل مناظر الطريق رائعة، والبلاد شاسعة مترامية الأطراف نادرة السكان بحيث لا يعدهم مجموعهم ستة ملايين؛ ولذلك كانت مساكنهم مبعثرة غير متظاهرة ولا مكتظة. هذا وفي الطرق الحديدية وأنفاقها ومناظرها ولياتها ومسالكها وسط تلك الصخور العاتية دليلٌ على مبلغ المجهود الفني، والقدرة الهندسية التي يبذلها القوم في مغالبة الطبيعة؛ ولذلك ليس بعجب أن تكون أجور السكة الحديدية عندهم غالية. وقد أخذوا كثيراً من الخطوط لقوة الكهرباء، وهم جادون في كهربأة ما بقي منها.



الأنوال اليدوية لنسج الكتان توجد في غالب بيوت إسكندنavia.

(٣-١١) ستكملم

ومعنها مجموعة جزائر (Holm: جزيرة)، وتسمى بندقية الشمال ذات موقع لا يبارى حسناً؛ فهي تقع على مجموعة من جزائر وأشباح جزائر على بحيرة مالار، فإلى شرقها تنتشر الجزائر تكسوها غابات الصنوبر، وتمتد النواتي الصخرية مسافة ثلاثين ميلًا؛ مما يكسب مدخل مينائها من البلطيق منظراً فذاً، وإلى غربها تقوم ضواحيها على شواطئ



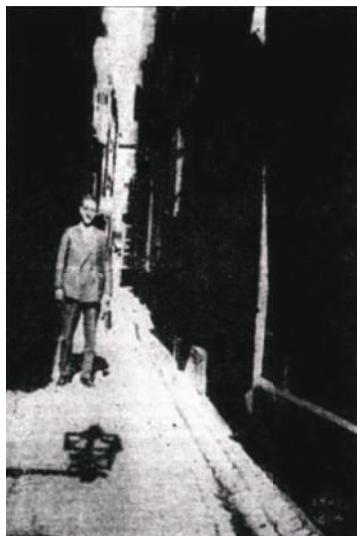
ستوكهلم مدينة الجزر والقنطر.

البحيرة وصخورها مسافات بعيدة، وأينما وليت في المدينة أشرفت على أفق صافي الزرقة، إذا سلكت سبيلاً إليه وصلت إلى لسان من البحر يلتوي يمنة ويسرة، وتعبره القنطر، وتحف جوانبه المتنزهات بأشجارها الباسقة، وتشرف نصف بيوت المدينة على الماء، وتُنقَل نصف متاجرها بالسفن والباقي بالعربات التي تتزع عنها عجلاتها فتصبح مزالق تسير فوق الجليد. وقد جمدت المياه من حولها إبان الشتاء، والمدينة لا تخبو حركتها قط؛ فأهلها ذرو نشاط وجّد في النهار، ولوه ومرح في الليل، وهم يناهزون نصف المليون عدًّا.

ولقد صدق من أسمها بندقية الشمال؛ لأنها أذكرتني بالبندقية عندما رأيت بحيرة مالار وشعابها التي تحكي «جراند كنال في فنسيا»، وكذلك حين وقع نظري على أضخم بناء فيها؛ وهو الراتهوس أو دار الاستشارة ببواكه وهندسته الغريبة، وهو يرمي ظلاله على مياه البحيرة ببرجه الرباعي الشاهق وكأنه قصر الدوج وسان ماركو في البندقية،

على أن كثيراً من جهاتها يُقام على رُبَّ شاهقة قد يستعين الماء على ارتفاعها بمصاعد كهربائية أشهرها مصعد كتينا؛ ولذلك ترى طرقاتها تعلو وتهبط، ويُسِير بعضها تحت بعض، وهي في ذلك تخالف فنسيَا.

وأقدم أحياط المدينة يقع على جزيرة Staden، ويسمى القوم بالبلدة بين القناطر؛ لأنها تتصل بحيراتها بقناطر من جميع جوانبها، جُسْتُ خلالها فإذا بها مجموعة من أرقة مختنقة متلوية لا يكاد يسمح غالباً لها لأكثر من اثنين بالمرور في وقت واحد، وفي شمالها الشرقي القصر الملكي أقيم سنة ١٧٦٠ في هندسة عصر النهضة الإيطالية، وقد زرته فإذا به آية في الزخرف والرواء، يحوي مجموعة قيمة من السرائر والبسط والأنسجة الملوشة التي تُكسى بها الجدران، وقد جيء بها من فرنسا عهد جستاف الثالث، وليس لها اليوم نظير حتى في فرنسا نفسها.



في أحد أزقة ستكمِل المختنقة.

وعلى مقربة من السراي قصر الأشراف Riddarhaus من نمط الباروك، ولعله أجمل بناء في المدينة كلها. يرجع عهده إلى القرن السابع عشر حين أقامه أشراف السويد لعقد

مجتمعاتهم السياسية والاقتصادية، يوم أن كانت لهم الغلبة، وكانت أسرهم تناهز أربعة آلاف، لكنهم اليوم فقدوا نفوذهم ونزل عددهم إلى أربعين ألفاً، ولم يبق لهم في البرلمان سوى ما بين ١٥ و١٠ عضواً من بين أربعين ألفاً، ولا تزال فلولهم تجتمع في هذا القصر للبحث في شؤونهم الاقتصادية فقط؛ إذ لم يبق لهم من الامتيازات السياسية شيء، ولا تزال شارات عائلاتهم القديمة تنقش فوق جدران «بهو الفرسان».

وبين القصر والسراي كنيسة عتيقة دفنت بها رفات كثير من الملوك من بينهم جستاف أدلف، وشارل الثالث عشر والرابع عشر، وتقع إلى شمال هذا الحي جزيرة روح القدس الصغيرة التي تقام عليها دار البرلمان الفاخرة تطل على أكبر قنطرة توصل إلى القصر الملكي، وتسمى Norrbro، ويلاصق البرلمان من خلفه البنك السويدي Riksbanken أقدم البنوك هناك، وأسبق بنوك الدنيا في إظهار الورق المصرفي «البنك نوت».

ويواجه القصر الملكي من الشمال أفحى ميدان بالمدينة وأنشطها حركة؛ فحركة المرور به تبهر العقول بكثرة تشعبها وشدة ضوضائتها وجلبتها؛ ولذلك عد قلب المدينة النابض، فمنه تتشعب أهم طرقاتها، ويحسن أن يتتخذ السائح بداية لرحلاته في المدينة ليكلا يصل طريقه؛ لأن تعدد الجزائر والشعاب المائية في أرجاء المدينة يجعل تعرف الطرق هناك أمراً متعدداً، وبخاصة على السائح الحديث العهد بها، وهنا كانت تخونني الخريطة فألجاً إلى البوليس أحياناً.

ومن أحياe المدينة الجذابة ذات الحدائق الغناء والرقي المتفرقة التي تبدو من دونها مدينة ستكملم في رواء ساحر Djurgarten، وأجدد أماكنها بالزيارة متحف Skansen تعرض به نماذج للحياة الريفية من أكواخ ومزارع وكنائس للشعوب السويدية قديمها وحديثها، وهي آهلة بسكانها في ملابسهم القومية، إلى ذلك ترى أهم صناعاتهم ومطاحنهم الهوائية وهداراتهم المائية.

وأجمل ما يسترعى النظر ببيوت لابلاند، ونظام معيشتهم الساذج، وأدوات منازلهم التي لا تزال على فطرتها الأولى، كذلك ترى أغلب حيوانات المناطق الجليدية كالدب القطبي الأبيض المفترس، وعجل البحر، وقطعان الرنة، والثعالب، والطيور المائية، وكلب البحر، والسمور. والمتاحف فوق ذلك متنته كثير المقاهي والمطاعم، وتحيط به من الخارج دور الملاهي.

وعلى مقربة من المكان متحف Nordiska الفخم، بناؤه من أربعة طوابق تعرض بها نماذج قيمة لمعيشة أهل السويد جميعاً، ونماذج للناس في تماثيل بأرديةتهم المختلفة

وأدواتهم وأسلحتهم وزوارقهم، ومنها يبدو ما لهم من المهارة في إعداد الخشب وخرطه وجمل شرائطه فيما يحكي الأنسجة تصنع منها الأحذية وبعض الآنية، وترى من بين ذلك أهل لابلاندة بزحافاتهم تجرها الغزلان، وفراشهم وجلودهم وخياهم، وثم مخلفات ملوكهم من أثاث وفرش وأسلحة، نخص بالذكر منها مخلفات جستاف أدولف أسد الشمال، وحامي البروتستانتية مُذ كان من أبطال حرب الثلاثين سنة الذين هزموا الكاثوليك مراراً، لكنه قتل في الواقعة التي انتصر فيها على ولنشتين. وقد حشا القوم جواهه وحنطوه بسرجه وخطامه، بحيث يبدو وكأنه لا يزال حياً. والحق أن المتحف يعطي للزائر فكرة صادقة عن الحياة السويدية في مختلف البقاء والعصور.

قصدنا ضاحية Drottningholm ويسمى بها القوم فرساي السويدي، وتقع على بعض شباب بحيرة مالار، والطريق إليها يجوز قرئ أبنيتها خشبية صغيرة في نظافة تامة، وتنسق أنيق، تحيط بكل منها حدائق. وخير ما يزار بها القصر الملكي الفاخر أقيم على نسق الباروك، وهو يشرف على البحيرة التي تغص بالجزائر ذات الأدغال الكثيفة، وخلف القصر حدائق تقاد تحكى في روائعها وروعتها حدائق بوتسدام، وإلى يمينه الكنيسة، وإلى جنوبه القصر الصيني يشبه في بنائه «الباجودا» الصينية. بني خلال القرن الثامن عشر حين انتشر اللوع بالفن الشرقي.

وبجانب القصر دار للتمثيل بناتها جستاف الثالث، وقد كان روائياً وشاعراً، وكان كلّاً بالتمثيل وبمشاهدة رواياته وهي تمثل على المسرح. وهذه الدار تعد الوحيدة في العالم التي تَحْوِي أثاثاً ومسرحاً تام العدد والملابس منذ ذاك العهد، وهي لا تزال تصلح للاستعمال.

وكان القوم قد أعدوا معرضًا كبيراً دعى إليه الخلق من مختلف بقاع الدنيا لمشاهدة منتجات السويدي، راقني من معروضاته طائفتان: معروضات الأخشاب من دور، وأثاث تشهد بما بلغته السويد من الشأن الكبير في هذا المضمار، الذي لا يدانيها فيه غيرها من الدول، فقد عرضوا من الأبنية الخشبية ذات الطابق والطابقين بكامل أثاثها في هندسة متباينة، وأحجام مختلفة ما يحار فيه اللب.

الطائفـة الثانية وسائل النقل المختلفة من قاطرات وسيارات كبيرة وصغيرة وبواخر وزوارق في أحجام كبيرة، ولا غرابة فالكهرباء المستمدـة من قوة الماء هناك فضلـ كـبير على هذا التقدم الصناعـي، خصوصـاً في الآلات والسيارات وأدوات الكهربـاء والتـليفـون والتـلـغـرافـ، على أنـ المـعرضـ في حـجمـه وـتـنـسـيقـهـ أـقـلـ بـكـثـيرـ منـ مـعـرـضـنـاـ الذـيـ أـقـمـنـاـ سـنةـ ١٩٣١ـ.



وسط ميدان جستاف أولف بستوكهلم.

وأذكر أني في بعض متنزهات المعرض تحدثت إلى سويدي بالإنجليزية في شئون مصر، وأتينا على ذكر معرضنا، وما كان أشد دهشته لما علم أن في مصر كثيراً من أمثالى، وأن معارضها وحضارتها تحكى أوروبا، وصارحنى أنه كان يعتقد أننا قوم همل رعاع، ورعاوه أن كنت أرتدي صديريًّا من الصوف، وصاح قائلاً: «ماذا عسى أن تفعل إذا جئت إلى هنا شتاء؛ فرأيت الماء جامداً والقوم يسيرون بمزالقهم فوق البحار والبحيرات، وقد غشَّى الثلج المتساقط الطرق كلها إلى علو قد يفوق المتر.»

(١٢) إلى أزلو

قمت إلى عاصمة النرويج، وكان القطار ينهب الأرض بسرعة خيالية بحيث كانت العربات تترنح وكأنها الأراجيح؛ ولذلك لم أعجب لما أبصرت من النافذة بقطار قد انقلب بعرباته فتهشم وانتشرت شظاياه ذات اليمين وذات الشمال في منظر يهز القلوب. ولما أن دخلنا أراضي النرويج زادت كثافة الغابات، وكثُرت مسالِيل الماء ذات المساقط العديدة، وأرماث

الخشب السابحة. وقد أقاموا لها الحاجز الخشبية عند المنحدرات كي تمنع كتل الخشب أن تلتصق بالضفاف.

وبعد ساعات إحدى عشر كاملات دخلنا أزلو — عاصمة النرويج التي أسسها الملك هارالد سنة ١٠٤٦ على ضفاف فيورد أزلو الذي يتلوى نحو الجنوب — ومن خلفها ربعة تشرف عليها. ولقد تخير لها هذا المكان لسهولة نقل غلات جنوب شرق النرويج، أخصب بقاعها، على أن النار قد شبّت بالمدينة فيما بعد وأبادت شطرًا كبيرًا منها، فأشار الملك كريستيان الرابع أن تقام على الجانب الآخر من الجون، ذاك الذي تحميّه قلعة منيعة من الغارات السويدية، ومن ثم سميت كريستيانيا. وفي ١٩٢٥؛ أي بعد ثلاثة قرون، قرر البرلان إعادة اسمها القديم أزلو، ومعناه المرج أسفل التل، أو مرج الإله، ويربو عدد سكانها اليوم على ربع المليون.



كارل جوهان الشارع الرئيسي في «أزلو» يسير صعداً إلى القصر الملكي المتواضع.

والمدينة صغيرة ولا بأس بمبانيها ونظافتها، قلبها النابض شارع: كارل جوهان، يمتد في استقامه من المحطة إلى السراي الملكية، وعليه تقع أكبر الأبنية والحوانيت، وأظهر ما به دار البريلان ودار التمثيل التي يتسع بها لـ١٥٤٥ نفساً، ثم الجامعة التي ينتسب إليها ٢٥٠٠ طالب، وينتهي الشارع بربوة يشرف عليها القصر الملكي المتواضع يتقادمه تمثال الملك كارل جوهان، أما باقي المدينة فعادي لا يستوعي النظر.

ومن المتاحف التي زرتها المتحف الأهلي، وبه مجموعة لا بأس بها لخلفات النورديين القدماء وأدوات أفزام الشمال، ومن بينها المجموعة التي أهدتها أمندشن، المستكشف العظيم، وقد جمعها من سكان شمال آسيا في رحلته وهو يحاول كشف الطريق الشمالي الشرقي، وهي تتتألف من أحجار وأدوات وعدد ملابس وخيات وعقود نظمت من الأسنان والظامان.

ومما هو جدير بالزيارة ضاحية جميلة اسمها Bygdo، يسكنها طائفة من أغنياء المدينة، وبها متحف Folke Museum لخلفات ملوكهم، وبعض الآثار الكنائسية، وفي جانب منعزل تعرض أقدم سفينة في العالم دفنت بها الملكة Asa منذ ١١٠٠ سنة، وقد استخرجت كاملة من تحت الثرى، وطولها ٣٠ متراً، وعرضها في الوسط ١٠، وطراها في طيات مدبية تحكي عرف الديك، وعليها نقوش من خرت الخشب، وفي كلا جانبها ١٥ ثقباً للمجازيف، والدفة متتصقة بجانب مؤخر السفينة، وتحكي مجدافاً كبيراً ربط في السفينة بجداول من خوص، وهي أثر قيم: لأنها التي ساح بها Erikson من ترندheim عبر المحيط الأطللنطي إلى شواطئ أمريكا منذ أكثر من ألف سنة؛ أي قبل كولب بخمسة قرون ونصف.

وفي ضاحية أخرى يسير إليها ترام الكهرباء صعداً إلى ٤٠٠ متر فوق البحر في وسط الصخور تكسوها الغابات، كنا نتبين جوانب الفيورادات والنقائع والقرى في الهوى من تحتنا، في منظر رائع، وغابات الصنوبر لا تغيب عن العين أينما وقع بصرها، وهناك متحف Ski الصغير، وبه يعرض زورق نانسن الذي صنع من قماش الشراع، وهو الذي أنقذ ذاك المستكشف العظيم في رحلته بالأقصاع القطبية الشمالية، وكذلك خيمة أمندشن التي آوته في القطب الجنوبي، وبها أدواته وكلب محشو من كلابه.

على أن القوم يبالغون جداً في أجور الدخول لتلك المتاحف، ويوزعون المعروضات على قلتها في مبانٍ مختلفة، كي تتعدد الأجور رغم غلوها؛ فهي لا تقل عن كرونة؛ أي نحو ستة قروش لكل مرة؛ لذلك فهي أشبه بتجارة واستغلال، ولعل لفقر البلاد دخلاً في ذلك



أقدم سفن الدنيا صنعت منذ ١١٠٠ سنة في النرويج.

«الاستغلال». أما الجو هنا فحدث عن رداءته، فهو أبداً غائم مظلم عاصف مطير، برده قارس حتى في أغسطس، ولم أنذك إلا يوماً واحداً لم تمطر فيه السماء طوال إقامتي في السويد والنرويج، فكان الطبيعة بقدر ما منحت القوم من مناظرها الخلابة لم تُنجزهم من غضبها الذي لا يفتأ ينghost عليهم بعض هنائهم؛ ولذلك ليس بعجيب أن نراهم أقل من سكان البحر الأبيض مرحًا وضحكًا، فظلام الطبيعة قد خلف أثره في نفوسهم.

(١٣) إلى برجن

قمت بقطار الصباح والسماء تمطرنا وأبلًا قاصدًا شفر بргن في غرب النرويج، والطريق الحديدي هنا يعد من المعجزات الهندسية؛ فهو يمتد مسافة ٤٩٢ كم وسط مسالك وعرة، وجبال قديمة عاتية، فيشق صخورها النارية بمئات الأنفاق، ويجوز ودياناً وقيعاناً، ويجانب ثلجاجات وغدراناً، ويعلو إلى ١٤٠٠ متر فوق سطح البحر.



محطة فنس في طريق «برجن الحديد» بين السويد والنرويج عند حد الثلوج الدائم.

بدأنا السير في إقليم مغصن كثير الخضراء، كثيف الشجر، وأخذ القطار يسير صعداً إلى جانب التلال، وكلما علا انكشفت لنا مناظر لوديان جذابة ونقاء فضية، وكنا نمر بقرى صغيرة يتخذها القوم مصايف لهم يقيمون فيها أيام عطلتهم، وهم كل يوم يتسلقون الربي من حولها في أردية متشابهة، وعلى ظهورهم الجعب الكبيرة، وفي أيديهم عصي الجبال.

وفي تلك القرى تكثر منашير الخشب قرب مسامط المياه، وكانت غالباً الوديان تغص بأرماث الخشب الغفل يسوقه التيار إلى المناشير، ويعرفه ذووه بعلامات يحفرونها في أطراف الكتل، وكنا نحس زيادة البرد كلما علونا، وبعد اجتياز قرية Gol في أكثر من ثلث الطريق أخذ المنحدر يزداد وعورة، والشجر ينضم ويقل عدده حتى انمحى وعم العشب بنوره الجميل ذي الألوان المختلفة. وهذا أيضاً أخذ يندر حتى حلانا قرية Finse في أعلى بقعة على الخط.



القطار يقف بنا قليلاً في محطة «فنس» أعلى محطات جبال إسكندنافيا.

وهنا بدت بقع الثلوج بيضاء وضاءة تنتشر على الربي من حولنا، ثم ظهرت بعض الثلوجات الكبيرة، وبخاصة Hallingskarvet إلى اليمين، وهاردنجر إلى اليسار، وعلى مقربة منها شلال Voringfoss الذي يهوي خمسمائة قدم دفعة واحدة. وهنا يعجز قلمي الكليل عن تصوير بدائع الطبيعة من ذرى تتوجهها عوائم الثلوج إلى مساليل من الماء تهوي في بطون سحابة إلى أودية مختنقة تسمع فيها دوى الماء، وترى أرغاءه وهو ينسكب على نواتئ الصخر، ويثبت درجات بعضها دون بعض، والوديان تختنق وتنعرج ثم لا تثبت أن تنبسط وتنفرج في نقائع وغدران هادئة آسنة. كل ذلك والقطار يشق طريقه في ليات ومطاوٍ عجيبة، ويخترق أفقاً لا عد لها.

وكان القوم يقيمون مظلات خشبية متدرجة لمنع الثلوج أن يتکاثر فيضحي جليداً يعوق سير القطار. وعند قرية Myrdal التي تقع وسط هوة تعلوها الربي الشاهقة من جميع نواحيها يدخل القطار أطول أنفاقه البالغ 17413 قدماً، وينكشف خانق Flamsdale الذي يسير الطريق على جرفه – وهو هائز سحيق يهوي من جانب القطار



في أعلى جبال إسكندنافيا حيث يدوم الثلج ويكاد ينعدم النبات.

إلى ١٦٤٠ قدماً في منظر رهيب — وكنا نرى في الأعماق طريقة ضيقاً يلتوي وكأنه اللولب في إحدى وعشرين طية متقاربة تؤدي إلى بطن الوادي.

وفي هذا الإقليم تكثر قطعان الرنة التي قد يبلغ الواحد منها ألف يتقدمها دليلاً من الغزلان كأنه الكشاف، ويغلب أن يسير الجميع في صفوف من ثلاثة أو أربعة، والدليل يجري إلى ناحية مهب الريح لكي يشم رائحة عدوه من إنسان أو حيوان، ثم يقود القطيع إلى الطريق المأمون، ورغم ندرة النبات هناك وعلو المكان عن حد الثلج بنحو ١٥٠ قدماً، قد أحصى القوم من فصائل النبات نحو ١٦٧، وغالبها ذوات زهر جميل مختلف الأوانة.

بعد ذلك يأخذ الخط في الهبوط بسرعة عجيبة، ويبدا ظهور شجر الصنوبر القصير المعقّد، ثم يتزايد عدده ويمتد طوله كلما هوياناً، ثم يجانبه شجر البتولا ذو السيقان الفضية، وتعود مقاطع الأخشاب ثم منابت الشوفان والشيلم إلى أن نصل برجن وسط فيوردها كثير الشعاب، وفي هذا الخط تتجلى قوى الطبيعة فيوضوح، ففي التواء الطبقات وتدخلها بعضها في بعض، بل وانقلابها أحياناً دليلاً على مبلغ أثر القوة الباطنة في رفع

تلك الأثناء إبان عصر الجليد، وفي خفتها عندما غرقت وديان غرب أوروبا وخلفت البحار الضحلة والفيورdas العديدة.

وإن في كثرة الطبقات الشستية والصخور النارية التي تبدو طوال الطريق دليلاً على قدم تلك الأصداع، أضف إلى ذلك ما يحسه المسافر وهو يسير صعداً من نقص في درجة الحرارة، وزيادة في المطر، وما يشاهده من اختلاف في نوع النبات الذي يتدرج من غلات البلاد الباردة إلى الغابات الصنوبرية إلى الأعشاب القصيرة وثلوج التundra، يبدو كل ذلك على كلا الجانبين، وفي يوم واحد، وتتوسط هذا الإقليم هضبة «هردنجر فدا» التي وصفها السائح إليوت الإنجليزي، وكان أول من عبرها سنة ١٨٣٠ بأنها قفار جبلية لا يمكن اختراقها. وبعد اثنين عشرة ساعة ونصف بدت برجن تحوطها الربي من جوانب ثلاثة.



فيورد برجن أشرف عليه من ربعة «فلوين» بالنرويج.

(١٤) برجن

أقيمت سنة ١٠٧٠ على لسان من الأرض مختنق نحيل، ثم أخذت في التضخم حتى أصبحت أكبر بلاد النرويج، وارتبطة مع دول عدة بعلاقات تجارية وثيقة أصبحت بفضلها أكبر الأسواق الشمالية للأسماك، وظلت أمدًا عاصمة النرويج، وفيها تُوج أول ملوك تلك البلاد، وفي خلال القرنين الثاني عشر والثالث عشر أخذت التجارة تحول إلى أيدي الألمان الذين فتحوا لهم مكتباً تجارياً بها، وزاد نفوذهم حتى احتكروا جميع تجاراتها، خصوصاً تحت نظام الاتحاد الهنفي الذي أسس لحماية التجارة من لصوص البحر، وامتد نفوذه حتى شمل البحرين الشمالي والبلطي. وقد تملك الجانب الأيسر كله من الميناء.

ولا تزال مباني هذا الحي بشكلها القديم، وهي أجمل ما يسترعى نظر السائح بهندستها الغريبة، ولبئثوا كذلك قرنين كاملين حتى انفصلت النرويج عن دانمارك، واستعاد النرويجيون مركزهم تدريجاً، وفي سنة ١٧٦٣ ابتعوا آخر دار هنسية ألمانية وأجهزوا عليها، وظلت بргن أول مدن النرويج إلى القرن التاسع عشر حين بزتها أزلو. وقد شبّت بها النيران مراتٍ أبادت من بيوتها الخشبية شيئاً كثيراً، وقد ساعد هذا على تجديد بنائتها في نظام هو خير من سالفه، على أنها لا تزال تحفظ بكثير من بيوتها القديمة، وهي تشبه روما في أنها تحاط بسبعة تلال زادت منظر مرفئها الجميل بهاء وروعه، ويقطنها اليوم ٩٧ ألفاً.

جُبِت أرجاء المدينة، وأوغلت خاصة في أحياطها القديمة البحتة، فإذا بها طرقات مختنقة، وأزقة متلوية منحدرة، منازلها من خشب، وأرضها قد رصفت بالحجر الصغير، وتقوم كثير من البيوت فوق الماء الذي قد يوغل فيها بألسن عدة. والمدينة يعزّها كثير من النظافة، أهلها فقراء كما يبدو من ملابسهم الرثة وكثرة أبناء السبيل والعاطلين من أولادهم.

زرت المتحف الهنفي، وأسمه أكبر منه، فهو كوخ خشبي من طابقين تعرض به أدوات عتيقة من خشب وكراسات وأقلام لبعض رؤساء التحالف الهنفي، وأمكنة نومهم تحكي صناديق الخشب، يدخلها الواحد ويحكم قفلها، وهي في شكلها الحقير تمثل مساكن التجار في ذاك العصر.

ومن أجمل ما يسترعى نظر السائح سوق السمك الذي يعقد يومياً في الصباح، في ميدان فسيح على الميناء، يعرض به مختلف السمك على أواح بمنظر قذر منفر، والروائح الكريهة تتتصاعد، وتسيل الدماء والأوساخ على الأرض بشكل تعافه الأعين، وال القوم من حوله يتزاحمون، ولا تخبو ضوضاؤهم، وغالبهم في ثياب خلقة رثة.



مساكن برجن من خشب وأحياها قدرة تحكي بلاد القرون الوسطى.

هذه برجن نفسها، أما ما حولها فتلل يكسوها العشب وقصار الشجر، بعضه يعلو البعض، فإذا ما ارتقية أحدها تجلت لك روعة الميناء، نظمت من حولها المنازل، وبخاصة إذا أشرفت عليها من ربوة Floien، التي نصعدها بtram معلق إلى ٣٥٠ متراً، وفي قمتها مقهى جميل يضاء ليلاً فيبدو من أسفل وكأنه تاج تلبسه المدينة، وثيريات الخط الكهربائي على المنحدر كأنها عقد أدي من جيدها. لبنت أعلى من تلك الرببي الواحدة تلو الأخرى حتى أعياني السير فعدتُ، والمناظر من حولي ساحرة جذابة ولعل برجن أسوأ بلاد إسكندنavia جواً، فسماؤها أبداً غاضبة تسح جفونها مدراراً، وهوائها بارد عنيف، أما أهل المدينة فمقشورو الوجوه، زرق العيون، ضخام الأجسام، يكثر العمالقة بينهم، وتلك المميزات فيهم أظهر منها في زملائهم من أهل السويد، وهم ميلون للمسكرات، يؤيد ذلك كثرة السكارى الذين يجوبون الطرق ليلاً. ولقد كانت عادة الإدمان منتشرة في إسكندنavia عموماً بدرجة خطيرة؛ ولذلك لجأت الحكومة إلى تحديد بيع الخمر بواسطة شركات خاصة قليلة العدد، حددت لها نسبة



الباخرة ليرا تبحر برجن عبر الأطلantic.

ضئيلة من الأرباح، وما زاد يدخل خزانة الدولة، ومن ثم قلت تجارتها جدًّا، وزهد القوم في بيعها، ونقص عدد المدمنين كثيرًا. ويسترعى النظر هناك كثرة الصبية الذين يتسلكون في الطرق ويجمعون أعقاب السجائر ويدخنونها، وذلك أثر من آثار فقر بيئتهم، وضعف رقابة الآباء عليهم لغيابهم وراء الصيد طويلاً.

أعددت عدتي للسفر إلى أيسلندا، ثم عدت إلى برجن ثانية، ومنها إلى أزلو، وقمت مبكراً إلى جوتبرج، وكانت تبدو النجاد تجللها الغابات، والوهاد تكسوها الخضراء وتزيينها الجداول والنقاء، وما كدنا نبلغ نصف الطريق حتى انفسحت السهول المنزرعة، وغابت



على رصيف ميناء «جوتبرج» الصاحبة.

عنا الجبال، فكان المنظر شبيهًا بمناظر حقول مصر المحبوبة، وأخيراً دخلنا جوتبرج بعد سبع ساعات ونصف.

(١٥) جوتبرج

أسسها جستاف أدلف، أسد الشمال وحامى البروتستانتية، وما فتئت تمتد وتتضخم حتى أصبحتاليوم ثانية مدن السويد، سكانها يناهزون ربع المليون، وهي تعدل أحسن مدن أوروبا وأرقاها نظاماً وتتسقّياً. يسترعى النظر بها نظافتها التامة، وكثرة متزهاتها، وضخامة أبنيتها، وامتداد مرتفئها الذي يغص بالسفن الضخمة، ويحوج بالحركة التجارية، والمرفأ لسان من البحر في غير استقامته تنسلخ عنه شعاب ضيقه في شكل قنوات يشق أنحاء المدينة، وأظهرها اثنان دائريتان إحداهما داخل الأخرى تعبرها القناطر العديدة، وتشقها زوارق الرياضة في غير حصر.

وبالمدينة عدة ميادين تتوسطها التماثيل التي أظهرها تمثال جستاف أدلف منشئها، ومن مبانيها الفخمة دار البريد والمتحف الملكي، وبه أحسن مجموعة من الفن النوردي بفرعيه الحفر والتصوير. وفي الجزء الشمالي من المدينة تبدأ قناة جوتو المشهورة التي تصل بين أكبر مدينتين في السويد: ستكمالم وجوتبرج، طولها ٣٤٧ ميلًا، ثناها يتتألف من بحيرات وأنهار طبيعية، والثالث من عمل الإنسان. ومجموع الأهوسنة التي أقيمت بها



أمام تمثال جستاف أدلف بجوتبرج.

٩٥، بفضلها ترفع السفن إلى علو ٩١,٥ متراً فوق سطح البحر. أما المناظر على ضفافها فسحرية تأخذ بالألياب؛ إذ تراها تحيطها الربى، تكسوها الغابات، وجري القناة بين ذلك ينقبض تارة وينفرج أخرى، وهو يتمايل بحيث تكاد الأشجار تلمس السفن في بعض البقاع.

ولقد زرت أجمل أجزائها في قرية Throllhattan تبعد عن جوتبرج بساعة في القطار. هناك ترى الشعاب كثير الصخور الجرانيتية في عدة درجات وخوانق يندفع الماء خلالها في شلالات رائعة، وسرعة مخيفة دونها عظمة خزان أسوان. وقد أقيمت هناك أكبر محطة لتوليد الكهرباء؛ حيث تستغل من مجموع قوة المياه البالغة ٢٧٠ ألف حصان كهربائي ١٧٠ ألفاً.

و حول المحطة أقيمت مجموعة مصانع كبيرة غالبها لصنع الآلات و صهر الحديد الغفل، وعندها أكبر مصانع العالم لاستخراج السلولوز «خشبين للنسيج» من الخشب، وتتعدد هناك القنطرات التي تشرف على المساقط المائية الجميلة. والفرع الخاص بالملاحة

جولة في ربوع أوروبا

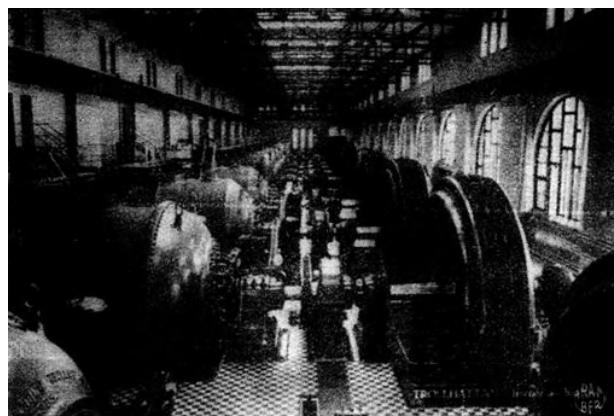


وسط النبات الوفير والمناظر الخلابة على ضفاف قناة «جوتا» بالسويد.



في جانب من قناة «جوتا» بالسويد حيث تكثر المنحدرات وتسخر لتوليد الكهرباء.

قد أخلّي من منحدراته وزُوّد بأربعة أهوسة كبيرة جعلته صالحًا لمرور السفن التي يبلغ عددها في السنة خمسة آلاف. هذا ومجموع المياه التي تتسرّب من تلك الأهوسة نحو



أكبر محطة لتوليد الكهرباء من قوة الماء: قناة جوتا بالسويد.



على ضفاف قناة جوتا بالسويد.

١١٠ ألف لتر في الثانية. وقد نسق القوم متنزهات بد菊花 حول هذا المكان، وأقاموا أنزالاً عدّة تجعل المقام هنا أمنية كل سائح يود الاستمتاع الكامل والهدوء العميّم.

(١٦) أيسلنده: بلاد الجليد والنار

أقلعت الباخرة ليرا Lyra النرويجية من ثغر برجن الساعة العاشرة من مساء الخميس، وكانت كلما تنحت عن الميناء تبدو المنازل المقامة على شعب الفيورد وفوق مدرجات التلال بثرياتها في منظر خلاب، والجزائر الصخرية الصغيرة تنتشر في مدخل الفيورد بكثرة عجيبة، وقد لبثنا نسير بين طيات هذا الجون ذي الجوانب الصخرية المشرفة من حولنا أكثر من ثلاثة ساعات، بدا بعدها المحيط الأطلنطي، ذاك الخضم المائج الرهيب.

وسرعان ما أخذت السفينة تترنح، وظلت شدة الموج في اطراد إلى صباح السبت حين بدت جزائر فارو البركانية في صخور شاهقة جراء تكسو بقعاً منها خضرة لا يكاد يستقيم لها عود، وهي في مجموعها سبع عشرة جزيرة يقطنها عشرون ألفاً، ومعنى كلمة فارو «الأغنام» في لغة القوم؛ ذلك لأنها أغنى جزائر المنطقة بالمراعي.

وأكبر مدنها Thorshaven، ومبانيها أكواخ من خشب تتناثر على حافة الماء، وكان الأهلون يفدون على السفينة في لهف وشوق كأنهم وجدوا في ركابها مؤنساً لهم في عزلتهم الوحشة، والبلاد يحكمها والٍ من قبل دانماركة يسمونه Amptman، ويعاونه مجلس من أهلها، وموارد الجزائر قاصرة على السمك وتمليحه وإصداره إلى الدول اللاتينية، وبخاصة إسبانيا.

وفي الساعة الثامنة من مساء الأحد ألقت الباخرة مراسيها في جزائر «فستمانوي»، على مقربة من ساحل أيسلنده الجنوبي، ويقطنها نحو ٣٥٠٠ من الناس، وهي أكثر صخرية وجدياً من سالفتها. يعيش في أحجارها طير الماء بكثرة غريبة، وتتسبح أسرابه فوق الماء زرافات، وفي مواسم معينة يصطاده القوم لينتزعوا عنه ريشه الثمين، ثم يجمعون البيض من أوكراته. وتلك تجارة رابحة لديهم.

جدت الباخرة في السير إزاء الشاطئ الجنوبي لأيسلنده، وكان يبدو في سلسلة صخرية وطيبة تشرف من ورائها أكبر ثلاثات أوروبا «فتناجكول» في بريق وضاء، وبعد عشر ساعات دخلنا فيور ركيافك بين رُبُّى شاهقة، تقام المدينة الهدائة على جوانبها الداخلية، وكان الجو دافئاً مشمساً جميلاً أذكرني بأيام الشتاء الدافئة بمصر على غير ما كنت أتوقع أن ألاقي في مثل تلك البلاد القاسية.



صيد الطيور بالشباك لنزع ريشها: أيسنلند.

(١-١٦) ركيافك

عاصمة أيسنلند، واسمها مشتق من كلمتين معناهما الجون ذو الأُبخرة؛ ذلك لكثره الغوارات التي تصعد البخار من حولها، والتي استرعت أنظار أول نزلائها فأطلقوا عليها هذا الاسم. والمدينة صغيرة هادئة تُثوي من السكان عشرين ألفاً، وهم خمس سكان الجزيرة كلها. بها طريقان رئيسيان في امتداد المدينة وبمحاذاة الشاطئ، وتقام بها أكبر بيوت السكنى ودور الحكومة والمحال التجارية. أما الطرق الباقيه فضيقه غير مرصوفة تعلو وتهبط بين مكان وأخر.

والمدينة على وجه العموم نظيفة خفيفة الروح يمكن للإنسان أن يجوب كل أرجائها في أقل من نصف يوم، وذلك ما فعلته أول يوم حلتها، وليس بها من المليادين والمتزهات إلا شيء لا يستحق الذكر، وغالب أبنيتها من الحديد المُجزَّع يكسوه الخشب من الداخل. ومن الغريب أن مواد البناء تستورد كلها من الخارج، ولا يستخدم الصخر إلا قليلاً رغم

كثرتة في البلاد، ولعل سبب ذلك شدة صلابة صخورها البركانية ورداءة طرق المواصلات وغلوها.

راقني من دورها العامة: متحف الفن الجميل، وبه مجموعة قيمة للمثال والمصور الأيسلندي المبدع «أينار جونسون»، الذي صمم بناء المتحف بنفسه، وأقامته له الحكومة، وبه يعرض منتجاته الفنية. وخير ما تتجلى عبقريته في مبتكراته الطريفة الفكرية، فكل قطعة تمثل عدة معانٍ رغم صغرها، وهي في أسلوب لم يسبقها إليه غيره، وهو لا يفسر معنى القطع إلا بكلمة واحدة فقط؛ لأن يكتب تحتها: «البعث أو العدل أو التطور»، ويدع للناس حرية تفسير ما ترمي إليه. والإنسان مجرد النظر يستبين مغزاها في جلاء تام. والمثال لا يزال يقطن جانبياً من المتحف، وتمهره الحكومة راتباً شهرياً. هذا وقد سرَّ القوم أن دون اسمي في سجل الزائرين كأول مصرى حل تلك البلاد.



طريقتهم الخطرة في جمع بيض الطيور من الأوكار.

بعد ذلك قصدت دار المتحف الأهلي، وبه مجموعة قليلة من آثار قديمة لختلف البلاد ومن بينها مصر، واسترعى نظري هناك لوحة كتب عليها بالعربية: الجاهل عدوكم ولو

كان صديقاً، وتحتها حديثان شريفان؛ وهما: اطلب العلم من المهد إلى اللحد، من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت، وتحتها إمضاء السعيد المصري تلميذ البكري. وكان تزاحم القوم حول تلك القطعة كبيرة، فكانت هذه فرصة لي أن أشرحها لمن كان يفهم الإنجليزية منهم، وأحدثهم قليلاً عن مصر. ولعل أكثر المعروضات قيمة في نظري القسم الخاص بالأدوات المنزلية الخشبية من صنع النورديين الأقدمين.

قصدت دار البرلان، ويسمونه Althing، وهو من مجلسين: الأعلى: وأعضاؤه أربعة عشر، والأدنى: وأعضاؤه ثمانية وعشرون، يتقاضى كل واحد راتباً عن كل يوم من أيام دور الانعقاد، والدار لا بأس بتتنسيقها من الداخل، وغرفها صغيرة، وتُحلّ بالصور الزيتية، وزيارة الدار وحضور الجلسات مباح لجميع الناس طول اليوم. وهنا تتجلى الديموقراطية الحقة بين أفراد شعب كلهم متساوون نشئوا على حب الحياة النيابية واحترامها منذ القدم، فبرلانيتهم أقدم برلمانات العالم طرراً — بدأت أولى جلساته سنة ٩٣٠، وظلت تعقد ألف سنة لم تتوقف خلالها سنة واحدة — ولذلك احتفل في يونيه هذا العام بالعيد الألفي في مهرجان فخم كان يرأسه ملك دانمارك، كما احتفل سنة ١٨٧٤ بمرور ألف عام على أول من نزل الجزيرة من الجنس الأبيض.

وقد كان استعمارها على يد بعض النرويجيين الذين خرجوا على حكم «هارالد» بعد أن نصب نفسه ملكاً على النرويج، رغم إرادة الكثرين سنة ٨٧٤، وكثير من أولئك المهاجرين فر إلى الجزائر البريطانية، ومنها إلى أيسلندا؛ ولذلك حملوا في عروقهم بعض دم الكلتين، ولا تزال لغتهم تبدو خليطاً من النرويجية والإنجليزية، وهي عين اللغة التي كانوا يتكلمونها منذ ألف سنة، وكانت إذ ذاك لغة إسكندرانيا.

ومنذ سنة ١٩١٨ أصبحت البلاد ملكية دستورية ذات سيادة يرأس حكومتها ملك دانمارك، ودستورها الحالي سُطِّر سنة ١٩٢٠، والوزراء يعينهم ملك دانمارك، لكنهم مسؤولون أمام البرلان، وهم ثلاثة: الرئيس، وهو وزير الحقانية والكنيسة — وهي على مذهب لوثر — ووزير الصناعة والتجارة، ووزير المالية. وأيسلندا دولة محايدة لا جيش لها ولا أسطول، والتعليم فيها إجباري بين العاشرة والرابعة عشرة، وبها جامعة ينتسب إليها مائة وعشرون طالباً.

أما السكان فهادئوا الطباع لا يحملون لبعضهم ضغناً، ينظر الفرد إلى غيره نظرة الزميل المساوي له، رغم ما قد يbedo من ملابسه الرثة وهن dame الوضيع، فترى الرث إلى جانب المتألق جالسين إلى منضدة واحدة في المقهى، وسحنهم وإن شابهت سكان



ركيافك عاصمة أيسلندا في الصيف.

إسكندنavia إلا أن بها مميزات خاصة؛ كالحمراء الشديدة، والانتفاخ الواضح في العيون مع أهداب يشوبها البياض، مما يقربهم لسكان شمال إسكندنavia وجرينلاندا.

أما قاماتهم فكجيرانهم طويلة، وقد كنت أظن أنني سأجد بينهم كثيراً من الأفزان، فإذا بي أنا أبدو قرماً بينهم، يؤيد ذلك أنني أثناء جولتي في أطراف المدينة الساعية العاشرة مساء التف بي جمع من الصبية وهم يحدقون في وجهي، ثم أخذوا يصيحون جميعاً وهم يشيرون إلى «أسكيمو أسكيمو» حتى غبت عن أنظارهم.

وملابس النساء غريبة تسترعي النظر؛ فهن يرسلن شعورهن في خصائص تجدل وراءهن، ويلبسن على الرأس شبه «قلنسوة» سوداء تغطي ناصية الرأس فقط، ولها ذوابات مدللة كالشعر المستعار إلى جانب جدائل الشعر الذي لا يقصصنه بل يرسلنه، وعلى أكتافهن تحمل الشيلان الثقيلة السوداء، ويترنن بملاءات مزركشة زاهية اللون من الخصر إلى القدم. أما رداء الصدر فمن القطيفة الثقيلة الموشأة بالنسيج الذهبي في شيء من الإسراف.



ركيافك في الشتاء وقد اكتست حلة بيضاء من الثلوج الوضاءة.

والحكومة تحرم الخمر عدا الجعة المخففة، ويظهر أن القوم كانوا مدمنين من قبل؛ ولذلك لا تزال ترى الناس يُخبئون زجاجات الخمر في جيوبهم، ويدخلون المقاهي ويطلبون زجاجة الجعة، ثم يختلسون فترات يملؤون أ��وابهم فيها من جيوبهم، متظاهرين أنهم يشربون الجعة فحسب، وأنت تلاحظ هذا في كل مقهى تختلف إليه.

بعد أن أحضرت علمًا بالمدينة وما فيها أخذت أقوم برحلات خارجها، وفي هذه تجلت المميزات الطبيعية التي خصت بها أيسلنده. وأجل تلك الرحلات رحلة جلفس وبركان هكلا على بعد مائتي كيلو متر من ركيافك، قطعناها بالسيارة، وما كدنا نخرج من المدينة حتى انفسحت أمامنا متسعات من الأرضي البركانية يكسوها البازلت والصخر البركاني المثقب وهي تعلو وتهبط، ويسخنها في المنخفضات فتات البازلت الذي ينمو به قصیر العشب ومن بينه طحلب أيسلنده المشهور في تغذية الأغنام، وفي تركيب بعض الأدوية، وبخاصة الحبوب لشفاء السعال.



أمام الدار الحديثة للبرلان المتواضع في ركيافك.

وكنا طوال الطريق نرى الأخرقة تتصاعد من الجهات المجاورة لنا في فوارات لا حصر لها، بحيث لا يمكن أن تنظر في دائرة الأفق ولا ترى بعضاً منها، ومن أعظمها شهرة: جريلا Gryla الذي يثور مرة كل ساعتين. وقد وقفنا بجانبه قليلاً فهالنا منظر انفجاره حين نفر وعلا بخاره إلى عtan الجو، وكان ماؤه الحار المتفجر إلى علو يناهز عشرة الأمتار يتتدفق إلى جوانبه، ثم يعود بعضه فيهوي إلى أعماق الشقوق إذا ما هدأت الفواراء. استأنفنا السير في تلك الفيافي شبه الصحراوية التي تبدو لا نهاية حتى استوقفنا مخروط برakan «ثراستلاند» الخامد، فصعدناه ونزلنا كأسه التي أصبحت الآن بحيرة آسنة، وكان مخروط هكلاً يبدو عند الأفق قبالتنا. وهو ليس من العظمة كما كنا نتصور؛ إذ إن فيزوف يفوقه روعة وجلاً، غير أن مكان هكلاً أكثر وحشة، وأشد صلابة وجدياً؛ إذ تجاوبه الوهاد، والنجد تكسوها اللافا الجامدة في غير نظام، وهو الآن خامد الأنفاس، ولا يمكن الوصول إليه بالسيارة، بل لا بد من ركوب الخيول الصغيرة Ponies المنتشرة في جميع أرجاء أيسلنده بكثرة مدهشة، والتي تسير فوق الصخر بثبات عجيب، وسرعة



فواراة «جريلا» تثور مرة كل ساعتين.

مخيفة حتى في الظلام. وهي مطيتهم الرئيسية حتى في طرق العاصمة ووسط سياراتها القليلة، ولا يزال ينقل البريد على متونها بين القرى، وهي تسير في قافلة عديدة الأهمال. وصلنا شلال «جلفس» بعد أن عربنا عدة مساليل مائية. وهذا الشلال يعد من أكبر شلالات أوروبا وأجملها، غور مسقطه خمسة عشر متراً، وذروته تبدو في شكل منحدرات سريعة غير منتظمة يرغي عندها الماء في منظر جميل، ثم يهوي إلى أسفله في شكل قوس تتواصمه صخرة تبرز فوق الماء كأنها الجزيرة.

وفي قرار تلك الهوة يضطرب مأوه ويعلو رذاذه، فيخيم في سحابة يصيب المرء بلها على بُعد عشرات الأمتار، وترى بها أقواس السماء بألوانها الجذابة ما دامت الشمس مشرتقة. وهذا اللون أكسبيه اسم Golden falls أو الشلال الذهبي، وأخيراً يدخل الماء في خانق وسط الصخر الأسود يتلوى ويمتد عدة كيلو مترات. منظر بديع رائع مكثنا في جنباته ثلاثة ساعات كاملات ولم نشف منه غلة، ولو لا أن اكتافه السماء وسخ المطر لما برحناه، وهو في شكله العام شبيه نيagara؛ ولذلك يطلق عليه أحياناً اسم «نياجرا أيسنلند».



في قرار كأس بركان خامد «ثرستلندر» أضحت بحيرة آسنه: أيسنلند.

بدأت العودة إلى ركيافك في طرق متلوية وعرة كانت سبباً في انفجار إحدى عجلات السيارة التي لبثنا نصلحها ساعة كاملة وسط المطر الهاطل والبرد الزمهرير، وما كدنا نسير قليلاً حتى وقفت إحدى البطاريات عن العمل ولم تستطع السيارة ارتفاع بعض الطرق الصاعدة ذات الليات والمطاوي العجيبة، فلجمانا إلى نزل صغير في الطريق – وأمثال هذه كثيرة هناك – وطلبنا سيارة أخرى بالטלيفون وصلتنا بعد ساعتين، وفي الساعة الحادية عشر مساء كنا على أبواب ركيافك، وكان ضوء النهار واضحًا بحيث تسهل القراءة فيه؛ لأن الظلام هنا نادر بين يونييه وأغسطس حين يظل الضوء بعد الغروب إلى أن يتصل بضوء الفجر صباحاً. وقد كنت أكتب مذكراتي هذه الساعة العاشرة مساء ولما تغرب الشمس، بل كان شعاعها الذهبي يكسو أعلى المنازل.



الأمهار الصغيرة مطية أيسنلند الرئيسية.

وكتيرًا ما يضايق هذا الضوء المتواصل السائحين ويقلق راحتهم في النوم. أما الأهلون فقد اعتادوه، على أنك لا تنسى أنهم إبان الشتاء، وبخاصة في ديسمبر ويناير يدفعون ثمن هذا غالياً حين لا يرون ضوء الشمس إلا ساعة أو ساعتين، وضوء الشفق إلا ثلا ساعات أو أربع، فكأنهم يلبثون أيامهم هذه في ظلام دامس يزيده ضغطًا ما يصحبه من برد زمهرير.

(٢-١٦) رحلة ثنجفلر

وهو المكان الأثري التالد الذي كان يعقد فيه برلاند أيسنلند، أقدم برلمانات العالم. أما الطريق إليه فغاص بالفوارات ذات الأبخرة المتصاعدة، وبمسايل المياه ذات الجنادر والشلالات والخوانق، وبسهول اللافا البركانية التي تنبسط إلى مد البصر، والمكان نفسه



قاطرة للبريد من الأمهار في أيسلندا، والرجل ينبع القرية بناعورته وكأنه قطار السكة الحديدية.

شعري في تكوينه، ترى به كتل الالاف ومدرجاتها تتشعب في نواحٍ عدّة تشقها الخوانق بعيدة الغور، دافقة الماء، ذات الجنادل والشلالات الرهيبة، والوهاد والنجاد تتعدد من حوله فتكتسبه تنويعاً يذهب بالملل.

وتحت إحدى الشرفات البركانية هناك ترى ربوة نحت القدماء مقاعد الأعضاء فيها، ولا يزال يرى بعضها متهدماً، ويتوjonها باسم Logberg؛ أي صخرة القانون التي لبشت أكثر من ثمانمائة سنة مقرراً تعقد فيه الجمعية الوطنية، ثم نقلت بعد إلى دارها الجديدة في ركيافك. وكان سكان أيسلندا يقدون من كل فج لسماع ما شرعته الجمعية من قوانين تقرأ عليهم من فوق الربوة، فتردد الشرفة الشاهقة من خلفها صدى الصوت مكمراً فيسمعه الجمهور المحتشد في السهل من دونها.

وبعد أن تصادق الأغلبية على ما سمعت ينصرف الناس. ويثابر الأعضاء على اجتماعاتهم هناك، وتحضير مشروعات القوانين للسنة المقبلة. وهنا أقيم مهرجان العيد



شلال جلفس «نيagara أيسنلند».

البرلاني بمناسبة مرور ألف عام على هذا النظام التشريعي الديمقراطي، وحضره خلق كثير من جميع بلاد العالم — بلغ عددهم يوم افتتاح الحفل ستة وثلاثين ألفاً — من بينهم كثير من الأمراء والوزراء. وكان غالب السائحين يأولون إلى مجموعة الأذال والبيوت الخشبية الصغيرة التي أقيمت هناك، بحيث كان يخيل للإنسان أنها مدينة ثابتة تموج بجماهير السكان.

أتمنت تطوافي في نواحي المدينة بشيء من التنقيب، فراقتي بها بحيرة ضحلة ترصف جوانبها، ويتخذها القوم مسبحاً في الصيف، وإذا ما حل الشتاء جمد ماؤها فأضحت ملعفهم المحبوب يمرحون فوقها بمزالقهم. والانزلاق فوق الجليد خير العابهم الشتوية



على حافة «جلفس» بأيسلندا ويفظلنا رذاذه.

التي تنشط جسومهم وتدفعها، وقد أقاموا حولها مخازن للثلوج التي تنفعهم في إعداد السمك، والتي يكسرونها من البحيرة. وعجب أن يستوردوا الثلج أحياناً من إنجلترا. ولما أن قاربت شاطئ البحر رأيت القوم نساء ورجالاً وصبية يعدون محصولهم من الأسماك، فبعضهم ينشره للتجفيف، والبعض ينظفه ويعده للتخلص، والبعض يجمعه في كومات كأنها التلال تغطى بالأقمصة الثقيلة ثم تعبأ بعده في الصناديق. ومهنة الصيد وإعداد السمك على اختلاف أنواعه هي المورد الرئيسي للبلاد؛ ولذلك تجد أغنياءهم ومتوسطي الحال منهم يمتلكون زوارق ويستأجرون الفقراء ليخرجوا بها للصيد لحسابهم في مواسم معينة، بعضهم إلى فيورادات شمال أيسلندا وغربها، والبعض إلى بحار جرينلانددة التي تبعد عن بلادهم بمائة ميل فقط.



على صخرة القانون حيث عقد أول برلمان في الدنيا.

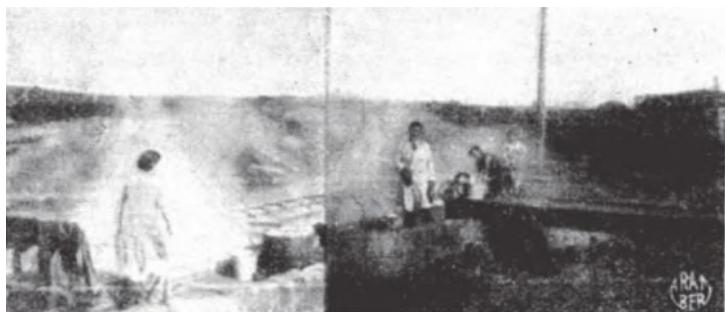
ويقال: إن سمك أيسلنده المعروف بالتروت Trout وبعض حوت «الكود» فيها هو أجود أنواعه في الدنيا؛ ولذلك ليس بعجيب أن تكون صادراتها من الأسماك بنحو مليوني جنيه، من جملة الصادرات التي تبلغ مليونين ونصفاً من الجنيهات كل سنة، وأن ترى الأطفال إلى شاطئ البحر يصيدون السمك ويشقون جوفه، ويستخدمون أحشاءه طعمًا لغيره، ويحفظون السمك في صفائح نظيفة.

وقد رأيت طفلاً وفي جعبته نحو العشرين سمة يزيد طول الواحدة على قدم، وهو ما زال يثابر على صيده ولم يعد العاشرة من عمره. وطبيعي أن يصبح السمك أشهى طعام لديهم يُطهى على أشكال منوعة، وأينما حللت قدم إليك، ويغلب أن يكون مسلوقاً، وإلى جانبه إماء من الزيد السائل، وآخر من البطاطس المسلوقة، وقد كان هذا من سوء حظي؛ لأنني أعااف السمك على وجه العموم.

جولة في ربوع أوروبا



شواطئ ركيافك وقد فرشت بالسمك يعده القوم في نشاط عجيب.



أكاد أختنق وسط بخار الفوارات التي يستخدمها أهل ركيافك في الغسيل والتدفئة.



خبز العجين بالجرادل تدفن في الأرض الساخنة في أيسلندا.

أدى بي السير في الأطراف القاسية من المدينة إلى الفوارات التي يستخدم القوم ماءها الحار في غسل ملابسهم، وقد أقيمت حول العيون التي لا تحصى شباك الحديد كي تقي الغاسلات أن يهوي إليها. والبخار يتتصاعد من جميع جوانبها إلى عنان السماء، وتسمى تلك الجهة في عرفهم «لوجارنار»، ولكلثرة ما يتصعد من بخارها بدأ القوم يدعون الأنابيب الضخمة لنقل البخار إلى المدينة، واستخدامه في تدفئة المساكن. وقد بلغ من استفادة بعض السكان من تلك الحرارة أنهم يطهون لحمهم وينضجون خبزهم بواسطتها؛ لأن يوضع اللحم أو العجين في إناء، ثم يدفن أسفله في الأرض، فلا تلبيث الحرارة أن تؤتي أثراً فيها وتنال منه كثيراً.

وعجيب أن يطلق على تلك الجزيرة اسم أيسلندا أو أرض الجليد، ولقد كان من نك الطالع – كما خبرني أحد أبنائها – أن حملت هذا الاسم الذي ينافق الواقع،



الشفق القطبي وكأنه ستار من نور في أيسلندا وشمال إسكندنavia.

وينفر السائحين أن يختلفوا إليها. وتلك التسمية ترجع إلى سنة ٨٦٥ حين حلها أول أبناء الجنس الأبيض المسمى «فلوكي فلجردارسون» من النرويجيين، نزل فيورد «برايدا» في الشمال الغربي من الجزيرة، ثم تخطاه شماليًا فانكشفت أمامه أجوان تغص بالجليد ذهبت قطعاته ضحية بردتها القارس؛ لذلك وصم الجزيرة كلها بهذا الاسم المنفر، رغم أنها أصبحت فيما بعد مقره ووطنه.

والجزيرة تبعد عن النرويج بنحو ٩٥٠ كم، وعن جرينلاندة بنحو ٣٣٠ كم، ومن مساحتها البالغة ١٠٥ ألف كم^٢، أللًا تكسوها الثلوجات والجليد الدائم، و ١١ ألفًا من ميادين الالفا البركانية، وسبعة آلاف من المنخفضات، والباقي نجاد وجبال.



بركان «كتلوجوسيد» الراي: أيسلنده.

وأيسلنده غنية بالمناظر الطبيعية الموعنة والظواهر الفلكية الرائعة، في مقدمتها أضواء الشفق القطبي Aurora التي يعجز البيان عن وصفها؛ فهي إذا ما ظهرت – ويغلب أن يكون ذلك في آخريات الصيف عندما يطول الليل ويسود ظلامه – أسدلت على قبة السماء ستاراً من ضوء متوهج تتدلى أهدابه، وهي تتحرك في ألوان قوس السماء الخاطف، ويعزو بعض العلماء سببها إلى الاضطراب المغناطيسي الذي يعرو الأرض عندما تواجهها بعض البقع الشمسية، وتصعد ذرات دقيقة مكهرة تصل الأرض وينشأ عنها هذا التوهج، وأكثر ما يكون عند القطبين المغناطيسيين.

إلى ذلك يضاف جمال الألوان السماوية عند مغرب الشمس ومشرقها، فما تکاد تتتعاقب الألوان البدعة عند الغروب خلال ساعة أو ساعتين حتى يرى الأفق الشرقي وقد بزغ نوره في ألوان جديدة وضاءة تغاير سابقتها، بحيث لا يستطيع المرء أن يميز الفارق بين الصباح والمساء. أما المناظر الطبيعية الشائقة الرهيبة، فهي مقدمتها ميادين اللافا والسدود البركانية، التي تدل على مبلغ أثر برودة الجو ومجاالتها للحمم المتوجهة عندما كانت تلفظها شقوصها وبراكيتها التي تبلغ المائة عدًّا.



الفوارة الكبرى «ستركور» بجوار ركيافك.

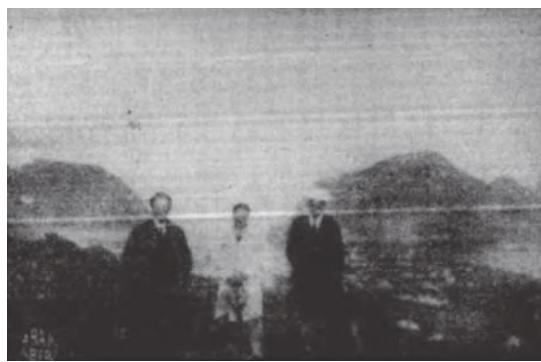
ويزيد تلك جمالاً وروعه ما يتخللها من شقوق وخوانق أضحت اليوم نهيرات ضيقية متلوية بها كثير من الجنادل والشلالات والبحيرات الراكدة التي تملأ كؤوس تلك البراكين الخامدة، نذكر على سبيل المثال من الشلالات Dettifoss، من أكبر شلالات أوروبا، ومدى غوره ٢٣٠ قدمًا، ويتوسط نهير Jokulsar الذي يصب في شمال الجزيرة، ويستمد ماءه من ثلاجة Vatna في جنوب شرق الجزيرة.

ومن البراكين نذكر «أيغا فجالا» أول ما يراه السائح وهو مقبل على الجزيرة من الجنوب تجلله الثلوج الوضاءة، وبركان «كتلوجوسيد»، ثم برakan Askja الذي روع الجزيرة كلها بشورته سنة ١٨٧٥، وغطى نصفها الشرقي بسحابات كثيفة مظلمة من دخانه وشظاياه. وفوهذه من الكبر بحيث تتسع لإقامة مدينة تئوي نصف مليون من الأنفس، وتحف بها الفوهات الصغيرة الفرعية.

ومن ثلاجات أيسلنده ما يذوب جليده فيملا الأودية، ويطرد ماؤه للسنة الجليد إلى أعلى بقوة قد تكسر كتلاً منه تهوي إلى الوهاد المجاورة، وتتحقق بها أضراراً جساماً.



أيسلنده أرض الجليد والنار حًقا: مذ نرى بخار الغوارات قد شق له منفذًا وسط الجليد.



وسط جزائر فستمانوي بين دكتور ألماني وطالب أيسلندي.

وبالجزيرة كثير من العيون الكبيرة أشهدها يقع إلى جنوب ركيافك، وفي شمال الجزيرة وفي بعضها يصعد الكبريت ثم يتتفق في الشقوق المجاورة فيعلوها البخار الكثيف، ويكسو المنطقة بصبغة منوعة الألوان، وإلى جانبها ترى عيوناً تندف بالأوحال الحارة، وكل أولئك له علاقة بالبراكين القريبة؛ إذ لوحظ أنها تزيد نشاطاً عندما تهدأ الحركات البركانية، وتهدا إذا نشطت تلك البراكين. وهذا يشبه تماماً ما رأيته في عيون سلفاتارا الكبيرة شمال نابولي بإيطاليا؛ فهي تنشط إذا هدأ فيزوف والعكس بالعكس.

أما فوارات الماء الحار فتفوق السبعمائة عدداً، وأيسلنده أغنى بلاد العالم بها، على أن أكبرها Strokkur إلى شرق ركيافك قد أضحي خامداً لا حراك به منذ أن وقع زلزال سنة 1896، لكنه يحاط بما لا يقل عن خمسين من الفوارات الصغيرة، وبعض فوارات أيسلنده يصعد بخاره من وسط الثلوج فيجمع بذلك بين النقيضين.

تلك بعض الميزات التي خصتها بها الطبيعة رغم صغرها، وكأنها قد أشفقت على أهلها في موطنهم النائي الذي يمس الدائرة القطبية، فسخرت لهم جانباً من تيار الخليج الدافئ الذي يضرب في سواحلها الجنوبية والغربية؛ فيقيها شر طغيان الثلوج عليها من البحار القطبية؛ ولذلك أمنت مياه ثبورها الجنوبية والغربية من التجمد حتى في أقصى أيام الشتاء.

ويرى الكثيرون أن أيسلنده مصحة صيفية – وبخاصة في يوليه وأغسطس – لأن هواءها رائق قليل الأوساخ؛ بفضل ندرة سكانها، وإقفارها من الشجر، وانتظام هبوب الرياح العكسية التي تجدد لها هواءها، ولطول أمد ضوء الشمس صيفاً، ذاك الضوء الذي يظل في المتوسط عشرين ساعة كل يوم ويظهرها من الأدaran والأوبئة. إلى ذلك تضاف بعض المركبات المعدنية المفيدة التي تصعد بها فواراتها العديدة وأوزون البحر الذي تأتي به أنسمتها البليلة.

أقلعت بنا الباخرة ليلاً عائدة إلى برجن، وما كادت تخرج إلى عرض المحيط حتى أخذت تتمايل، واشتد من حولها الموج، وعاودني وكثير من المسافرين مرض البحر، فلزمت مرقدي حتى رست على جزائر فستمانوي في صباح اليوم التالي، وظللت راسية ست ساعات تحمل وسقها من الأسماك.

وقد جبت أرجاء الجزيرة ذات الصخور المشرفة والبراكين الخامدة التي تسلقنا أحدها بعد جهد كبير، ثم عدنا إلى الباخرة واستأنفت سيرها، وألقت مراسيها في جزائر فارو ساعة واحدة، ثم برحتها، وكان البحر هائجاً يكاد موجه يخلع الأفئدة، ويهد قلب

الشجاع، بلغ من شدته أن كان بعض رفافي على سطح الباخرة فعُلّت موجة سطح السفينه وغسلتها، ودفعت بصاحبها ومن معه إلى الجانب الآخر منها، وصدمته صدمة ألت بنظارته إلى اليم، وكادت تودي بحياته.

والحق أن عظمة البحر المائج وروعته لتثير في الإنسان مشاعر سامية، حين تتجلى القدرة الإلهية، ويتباءأ جبروت الإنسان أمامها، وتعوزه الحيلة رغم ما أوتي من ذكاء وفطنة. ينظر من حوله فلا يرى إلا الماء الغاضب يمتد إلى الأفاق، وقبة السماء تنطبق عليه، والسفينة بينهما لا حول لها ولا قوة تحت رحمة المقابير تأتي بها ما تشاء، موقف يزيد إيمان المرء، ويوثق اعتقاده في الله جل وعز.

لبث طوال أيام العودة ملازماً الفراش لم أندوّق خلالها طعاماً ولا شراباً، فكانت أيامًا مريمة علىٰ، وما كادت شواطئ النرويج تبدو علىٰ بُعد حتى عاودتني الحياة. وهنا ذكرت موقف كولبس ورجاله، وأحسست بما شعروا به حين أن كاد يُؤسهم غياب البر عنهم أمداً طويلاً.

أخيراً دخلنا فيورد برجن ولبثنا نسير فيه ثلاثة ساعات. وقد غيرنا زمن ساعاتنا في تلك الرحلة مرتين؛ الأولى: عند الوصول إلى جزائر فارو، حين كان زمنهم يتقدمنا بساعة كاملة زدناها نحن في ساعاتنا، والثانية: عندما وصلنا برجن. هذا في الإياب، وقد فعلنا عكس ذلك في الذهاب.

إلى هنا أختتم كلمتي راجياً أن أكون قد وفّقت فيما قصدت إليه من إعطاء حضرات القراء فكرة صادقة عن أوروبا: فضائلها ومثالبها؛ لعل لنا فيها أسوة وعبرة. والله ولي التوفيق.

